ندى الدانا

عند النافذة

قصص قصيرة

الطبعة الثانية 2022 م
حلب – سوريا
الطبعة الاولى دار الحصاد 1994

عند النـافذة

مقدمة

من خلال نافذتها الواسعة،تطل على الكون بتجلياته المختلفة،تحاول سبر أغوار الإنسانية واكتشاف الواقع،إنها ترمي شبكتها في بحر عميق لتصطاد اللؤلؤ والمرجان وأسماك القرش والحيتان أيضا.
تلتقط اللحظات الإنسانية بزخمها وغناها لتقدمها في أسلوب فني جديد.
تتميز قصصها بالتكثيف والتركيز،واللغة الشفافة،يمتزج فيها الحلم والواقع،التحليق في عالم الخيال،والدقة في رصد التفاصيل،الرمز والأسطورة،من أجل تحقيق هدفها في البحث عن عالم أكثر إنسانية.

الحذاء

-1-

دخل الصف متأخرا، نظر إليه الأستاذ، تفحصه من رأسه حتى قدميه، ثم..:((أين حذاؤك؟!))

نظر التلاميذ باتجاهه، أحس بنفسه صغيرا جدا، مسكينا، مرة ثانية سأله الأستاذ:

-أين حذاؤك؟

- أضعته يا سيدي
- أضعته! وبكل وقاحة تقول هذا، غدا لا أريدك أن تأتي حافيا، هل فهمت؟
- نعم

أطرق برأسه،ذهب باتجاه مقعده ، جلس، والتلاميذ ينظرون إليه بشيء من الشماتة المشفقة، عندها تمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته.

-2-

أشار الأستاذ إليه، قال:

-تعال وحل هذا التمرين

تحرك من مقعده، مشى باتجاه السبورة، صوت القبقاب الذي يلبسه بدأ يرن طرق..طرق..

قال الأستاذ:أ هكذا تأتي إلى الصف بالقبقاب؟!غدا أريدك أن تلبس حذاء.

أطرق برأسه، ابتدأ يكتب على السبورة بأصابع مرتجفة، عاد إلى مقعده، صوت القبقاب يرن، طرق. ..طرق.. جلس ساهما، وتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته.

-3-

مشى في باحة المدرسة متباهيا بشحاطته الجديدة، أحس بنظرات الحسد من زملائه تتابعه، اقتربت منه مجموعة من أصدقائه:

- ألن تذهب معنا بعد انتهاء الدوام إلى الساحة كي نتسابق؟!

- نعم، سأذهب

وضع شحاطته في زاوية الساحة، وابتدأ يركض مع رفاقه، ويسابقهم، حين تعب من اللعب، فتش عن شحاطته، لم يجدها، سأل رفاقه عنها، أنكروا رؤيتها.. ((هكذا إذن! سرقوا شحاطتي))

عاد إلى البيت حافيا، دخل متلصصا، اطمأن إلى أن أباه لم يره، بعد قليل التفت أبوه إليه، طلب منه كأسا من الماء، مشى باتجاه الخابية.

- لماذا تمشي حافيا يا بني؟ أين شحاطتك الجديدة؟

- -عند العتبة

- أزني إياها

تظاهر بالبحث عنها، سأل أخوته
- أين هي؟ كانت عند العتبة.
-أتكذب علي يا ابن الكلب! هذه المرة أضعتها أيضا! من أين سآتي لك كل يوم بشحاطة جديدة؟ يقترب منه ، يرفع يده نحوه، يضربه على خده ، على رأسه، على يده، على رجليه الحافيتين، ثم يعود إلى ركنه في زاوية الغرفة.

-4 -

دخل بيته، استقبلته زوجته بهلع:
- أين حذاؤك؟!
تطلع إليها باستغراب:
- في رجلي
- أنت لا تلبس حذاء، أنت حافي، هكذا تخجلنا أمام الجيران، لديك عدة أحذية وتمشي حافيا، هل تظن نفسك في ضيعتك؟! نحن نسكن في المدينة، وفي حي راقٍ، ودائما يعيرني أهلي بك، يقولون لي:
- ألم تجدي غير هذا الفلاح الذي لا يعرف كيف يلبس حذاء كي تتزوجيه؟! طبعا خلعت حذاءك في مكان ما وجئتني حافيا، ماذا سأفعل يا ربي؟

وتلطم خديها بأسى، ماذا سأفعل يا ربي؟!

-5-

تطلع إليه الموظفون باستغراب، تفحصوه من رأسه حتى أصابع قدميه، همس أحدهم بصوت عال:

-أين حذاؤك؟

نظر إلى قدميه، اكتشف أنه فعلا دون حذاء قبع وراء مكتبه، أخفى رجليه الحافيتين تحت الكرسي، تساءل ثانية:

- ماذا يحدث لي هذه الأيام؟
- اقترب منه أحد زملائه:
- هذه المرة الثانية التي تأتي فيها دون حذاء، ماذا حصل لك يا صاحبي؟ الموظفون يتهامسون فيما بينهم بأنك مجنون، أنا أعرف أنك سيد العاقلين، ولكن الآخرين لا يفهمون هذا.

نقل بصره بين وجه زميله وبين قدميه الحافيتين، وتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته.

-6 -

كانت الساعة الواحدة ليلا، كان يمشي في شوارع المدينة وحيدا، فجأة برز ثلاثة رجال من إحدى الحانات تبدو عليهم الشراسة والوقاحة.

- ماذا تفعل في هذا الوقت في الشوارع؟

- أمشي، أستنشق الهواء،وأنتم ماذا تفعلون؟
- هكذا إذن!تستنشق الهواء، يا ابن الكلب!
سنعلمك كيف تستنشق الهواء جيدا.
- من أنتم؟
-من نحن! نحن الذين سنضربك بالحذاء، وخلعوا أحذيتهم وانهالوا عليه بالضرب، ظلوا يضربونه حتى استطاع أن يهرب منهم راكضا.

-7 -

التف أفراد الأسرة حول المريض، كان يرقد في فراشه بوجهه الأصفر الشاحب، زوجته تبكي، أولاده واجمون.
نظر ابنه إلى الطبيب
- أليس هناك من أمل؟
- لا نهايته قريبة.
أطرق الابن إلى الأرض كي يخفي الدموع التي طفرت من عينيه.
رفع رأسه، التقت عيناه بعيني الطبيب، قال الطبيب: البقية في حياتكم
اقتربوا من المتوفى، رفعوا الغطاء عنه، كان منكمشا على نفسه وقد تحول إلى حذاء كبير.

السماعة

ترفع سماعة الهاتف،على الطرف الآخر صوت صديقتها

- منذ زمن بعيد لم نرك،أين أنت؟هل انقطعت عن العالم؟
- آلو...آلو..يضعف صوت صديقتها
- آلو...يختفي الصوت

تضع سماعة الهاتف،تنتظر بجانبه،لعل صديقتها تتصل ثانية،بعد قليل،يرن جرس الهاتف،ترفع السماعة- آلو...آلو

الصوت يصل ضعيفا من الطرف الآخر،يختفي الصوت،تعود إلى المجلة التي تقرأ فيها،السطر الأول،الثاني،تتراقص الأحرف أمامها،تتسارع ضربات قلبها،منذ يومين وهي فريسة لنوبة صداع حادة،تضع رأسها على المنضدة،تفرك جبينها بيدها،تترك غرفتها،تمشي باتجاه المطبخ،تعد كأسا من الشاي بالليمون،لن يغريها الصداع بابتلاع حبة مسكن،تفرك جبينها ثانية،تربط رأسها بمنديل،تشد المنديل،تربطه عند الجبين،لا يتوقف الصداع،رأسها

يكاد ينفجر،عيناها جاحظتان من الألم،تطرق المنضدة أمامها برأسها،يصل أذنيها صوت الطرق يزداد الصداع نوبة الكآبة تزداد حدة،لا تستطيع القراءة،تسند ظهرها إلى الكرسي،ترمي رأسها إلى الخلف،تترك الكرسي،تمشي في أرجاء الغرفة،تركض،تريد أن تكون وحيدة،تريد أن تتواصل مع الآخرين،الحقيقة أنها لا تعرف ماذا تريد،وهذا الصداع اللعين!رأسها يكاد ينشق نصفين،صوت دقات قلبها يصل أذنيها،يجب أن تذهب إلى الطبيب لتجري تخطيطا للقلب.منذ زمن ودقات قلبها تتسارع حين تتعب قليلا،يرن جرس الهاتف،ترفع السماعة

- آلو...آلو..صمت مطبق على الطرف الآخر
- آلو...آلو

تشد السماعة،تمشي بعيدا عن جهاز الهاتف،السماعة مازالت في يدها،يجب أن تذهب إلى الطبيب.الصداع لم يعد يحتمل،دقات قلبها تتسارع،عيادة الطبيب قريبة،تفتح باب المنزل،تخرج،تقطع الشارع،تدخل عيادة الطبيب،غرفة الانتظار مزدحمة،تجلس على كرسي قرب الباب،تشعر بالاختناق من رائحة الدخان،((لو أنهم يتوقفون عن التدخين!)).تنتبه إلى أن سماعة الهاتف ما زالت في يدها،تضعها على المنضدة أمامها، الوجوه حولها متعبة،شاحبة،تسمع صوت

دقات قلوبهم،تنظر إلى المنضدة أمامها،ترى سماعة طبيب،تبحث عن سماعة الهاتف،لا تجدها،تتساءل: ((سماعة الطبيب ما الذي أتى بها إلى هنا؟!))،تضعها على قلبها،دقات قلبها صارت منتظمة،تشعر بالارتياح.الممرضة تجلس خلف الطاولة بوجهها الحزين،وثيابها السوداء،الغرفة ما زالت مزدحمة،ليس لديها الصبر للانتظار،تتأمل لوحة من الفسيفساء تتربع على الجدار أمامها،اللوحة شفافة،رقراقة،جدول من الماء يتهادى أمامها،تتذكر صديقة عزيزة لم تزرها منذ زمن،الانتظار ممل،تخرج من عيادة الطبيب،ستذهب لزيارة صديقتها في بيتها الجديد.

تمشي في الشارع مسرعة،تستقبلها صديقتها بفرح

- وعدتني بزيارة منذ زمن طويل،قلقت عليك
- تعرفين العمل،وظروف الحياة ومشاغلها.
- يبدو عليك التعب والمرض
- الصداع وخفقان القلب ينغصان حياتي،وأنت ما أخبارك؟
- على ما يرام،الآن بدأت أشعر بالراحة بعد أن رتبت بيتي الجديد،ما رأيك لو نجلس في الشرفة؟
- أكون شاكرة لك.

الشرفة واسعة، عريشة الياسمين تمتد، وبعض أصص الزهور...فجأة!...ما هذا يا سوسن؟!يا للغرابة!
تلتفت سوسن:- ما بالك تتعجبين؟!

- تصوري المصادفة الغريبة،البركة والنافورة التي أمامي زخارفها تشبه لوحة رأيتها منذ قليل عند الطبيب في غرفة الانتظار.
- هذه البركة جاءتنا هدية من أسبانيا،لكن الزخرفة عربية
- حقا! إذن بضاعتنا ردت إلينا
- اشربي قهوتك قبل أن تبرد
- جميلة شرفتك هذه،ممتع أن يشرب الإنسان القهوة هنا ويتأمل ما حوله.
- من حسن حظي أن الشرفة أعجبتك،إذن ستأتين لزيارتي دائما.
- طبعا،ليس من أجل الشرفة فقط، بل من أجل صاحبتها أيضا.

البركة تتألق بجلال أمامها،النافورة تتمايل بلطف،ترش الماء حولها،تتأمل الزخرفة،تقارنها مع اللوحة عند الطبيب،تتذكر،يجب أن تعود إلى العيادة،لقد نسيت سماعة الهاتف في غرفة الانتظار،هذه البركة تذكرها بقلعة حلب.

- أين شردت؟

- آه!نعم،ذكرتني هذه البركة بقاعة العرش في قلعة حلب.
- ما رأيك إذن في أن نزور القلعة،الطقس صار دافئا.
- فكرة جميلة،نتفق على ذلك في الأسبوع القادم.

تدخل عيادة الطبيب،ترى الممرضة ترتدي ثيابا بيضاء،وجهها بشوش،تتساءل((هل هذه هي الممرضة الحزينة ذات الثياب السوداء؟)).

تركز أنظارها عليها((هي بذاتها، ولكن ماذا حصل؟)) خف الازدحام في قاعة الانتظار،قالت لها الممرضة:

- استريحي ريثما يأتي دورك.
- لن أدخل غرفة الطبيب،لقد تحسنت صحتي،لكني تركت سماعة هاتف هنا على المنضدة.

باستغراب تتساءل الممرضة:

- سماعة هاتف!أنت جئت بسماعة هاتف؟!
- نعم سماعة هاتف،وربما سماعة طبيب،لا أدري.
- لم أر شيئا على المنضدة.
- أنا متأكدة،ألست أنت التي كنت هنا،وكنت ترتدين ثيابا سوداء؟!

- نعم،أنا،ورأيتك حين دخلت العيادة في المرة السابقة،لكني لم أكن أرتدي ثيابا سوداء،ولم يكن معك سوى حقيبة يد صغيرة وضعتها على المنضدة،وحين خرجت أخذتها معك.

تتطلع حولها بحيرة((ماذا حصل لي اليوم؟!))

تنظر إلى الجدار، تتساءل:

- أين لوحة الفسيفساء التي كانت معلقة هنا؟!
- لوحة فسيفساء!ليس لدينا أية لوحة فسيفساء هنا

تنظر ثانية إلى الجدار،ترى لوحة تمثل قلعة حلب،((ماذا يحدث لي؟))

تعتذر من الممرضة،تعود إلى منزلها،تدخل غرفتها،ترى بقايا الشاي بالليمون في قعر الكأس على المنضدة،المجلة التي كانت تقرأ فيها مفتوحة على الصفحة ذاتها،سماعة الهاتف مازالت مكانها،تتذكر أنها بحاجة إلى النوم،منذ يومين لم تنم،تضع رأسها على مخدتها،وتستغرق في نوم عميق.

1991/3/7

الزقاق

لم تكن المرة الأولى التي تعبر فيها ساحة فرحات،أحيانا حين تريد اختصار الطريق للوصول إلى بيتها،تعبر ساحة فرحات،تمر بالزقاق الضيق المظلم الذي يتفرع عن الساحة،ويتجه إلى سوق الخضار،زقاق مخيف بسقفه العالي على شكل قنطرة،وأرضه المبلطة بأحجار صغيرة ملساء وجدرانه المسودة،والأبواب الصغيرة المتناثرة على أطرافه.

بدأت رحلتها في الزقاق،كل مرة تعبر بشيء من الخوف،لكن هذا الخوف لم يكن ليمنعها عن المجيء من هذا الطريق رغم وجود طريق آخر،هذه المرة كان الخوف شديدا،وكان القلق يسيطر عليها.بدأت تتلفت حولها،اصطدمت قدمها بحقيبة مدرسية،أمسكت الحقيبة،فحصتها،كانت ممزقة،تفوح منها رائحة الجلد،فتعيدها إلى ذكريات المدرسة الابتدائية.تصاعد الخوف في أعماقها،بدأت تسرع في المشي،وتنظر بين الفينة والفينة إلى سقف الزقاق المقنطر.انحنت على الأرض،التقطت منديلا مطرزا زهري اللون((هذا المنديل ليس غريبا عني،كأنه المنديل الذي أهدته لي خالتي حين كنت صغيرة)).خيط من الذكرى تسرب

إلى الزقاق،خالتها التي أحبتها كثيرا،وكانت تغمرها برعايتها،صار الثرى مأوى لها منذ زمن طويل.
تتابع سيرها بخطاها المتسارعة، ترى امرأة قادمة باتجاهها، تلبس ثوبا أصفر اللون، تقترب المرأة منها((إنها جميلة الوجه)).تنظر المرأة إليها بتمعن وتتابع سيرها.تلتفت خلفها،فترى المرأة قد التفتت أيضا. تلتقي نظراتها بنظرات المرأة، وجه المرأة يصبح قبيحا مترهلا،شعاع من اللؤم والخبث يخرج من عينيها،تشعر بالرعب،تدير وجهها((هذه المرأة لا تعرفني ولا أعرفها،لماذا تنظر إلي هكذا؟!))
تتابع سيرها وقد امتلك الرعب كيانها،لمع طيف في ذاكرتها،((هذه المرأة تشبهها،نعم تشبه صديقتي الغادرة التي تخلت عني حين احتجت إليها)).
بعد قليل ستصل إلى الباب الأسود الكبير،هذا الباب الذي طالما حيرها،وأثار فضولها،باب أسود من الحديد،أطرافه مزخرفة،كلما مرت كانت ترى الباب مفتوحا قليلا،وشعاع من الضوء ينفذ إلى الزقاق من خلال الفتحة.كثيرا ما خطر لها أن تفتح الباب أكثر وتمد رأسها،لكنها كانت تتراجع.تذكرت أنها نسيت أن تضع قليلا من الطعام في حقيبتها من أجل الكلاب الصغيرة الجميلة التي تقبع قرب الباب،ثلاثة كلاب لها أطواق سوداء،وعيون وديعة،تتقافز فرحا حين

تراها،ولكن ما هذا الصوت ؟! صوت نباح شرس يصل أذنيها،تقترب من الباب الأسود،الكلاب الوديعة تنظر إليها بعيون محمرة،تتقافز حولها وتنبح،تهرب منها،تلاحقها،ماذا حصل لهذه الكلاب كي تهاجمها هكذا؟!هذه الكلاب التي طالما ربتت رؤوسها وأطعمتها،تهاجمها!

تشعر أنها محاصرة،تنظر حولها،ليس هناك سوى الباب المفتوح قليلا،تقترب من الباب بسرعة،قبل أن تستطيع الكلاب الدخول،ترى أمامها باحة واسعة،محاطة بحديقة مزدحمة بأشجار النارنج والليمون والبرتقال،الأغصان كثيفة،أوراق الأشجار نضرة لامعة بعد ليلة البارحة الممطرة تمشي إلى آخر الباحة، تدخل بين الأشجار ،أقدامها تغوص في الطين، تزيح الأغصان بيديها كي تستطيع المرور،الأغصان تخدش يديها ووجهها،تصطدم قدمها بجذع شجرة برتقال،تشعر بالألم،تستند إلى إحدى الأشجار كي تستريح قليلا،ثم تتابع طريقها،رائحة أزهار الليمون والبرتقال تنقلها إلى بيت جدتها بفنائه الواسع وأشجاره الكثيفة التي كانت تتسلقها حين كانت طفلة،وكانت جدتها تصيح بها: ((حاذري أن تقعي!)). لكنها لم تكن تأبه بها،فكانت الجدة تركض إليها خائفة،عندئذ كانت تضحك بعبثها الطفولي ثم تهبط عن الشجرة وتؤنبها

الجدة((كم مرة قلت لك لا تتسلقي الأشجار،أنا سأقطف لك ما تريدين من الليمون والبرتقال،لكنك عنيدة مثل أمك،تريـــدين أن تحصـــلي علـــى كـــل شـــيء بنفسك)).وتعود الجدة إلى كرسيها المعهود،تمسك مســـبحتها بيـــدها،وتراقبها خشـــية أن تصـــاب بمكروه،وحين تقترب منها وتقشر لها برتقالة،تضحك الجدة وتقول:- ماذا سأفعل مع هذه البنت الشقية؟!

نباح الكلاب المتصاعد ينسيها جدتها،تنظر باتجاه الباب،تراه ما زال مغلقا.ألن تهدأ هذه الكلاب كي تفتح الباب وتخرج؟! ألن تذهب خارج الزقاق كي تستغل الفرصة وتهرب؟!

تنظر حولها،تمشي إلى نهاية الحديقة((ترى ألا يوجد باب آخر؟!)). في نهاية الحديقة ترى بيتا كبيرا له باب مغلق،ونوافذ كثيرة،تقترب من البيت،ترى نافذة مفتوحة يطل منها رجل ذو وجه أليف((أين رأيت هذا الوجه؟!))،تقترب من النافذة أكثر،تنظر إلى الرجل متسائلة،الرجل ينظر إليها بتأمل،نظرته تربكها،تدير وجهها باتجاه الباب الأسود،تنظر ثانية إلى الرجل،وجه نحيل فيه أخاديد وتجاعيد،مثل أرض محروثة لتوها،يشع بالطيبة والحنان،شعر أشيب يحيط بوجهه كهالة نورانية،تتأمل عينيه،نظرته النافذة تخفي

كثيرا من الأسرار((هل ألجأ إليه كي أتخلص من الكلاب؟!))
تنتبه إلى أنها ما زالت تنظر إليه،وأنه لم يحول بصره عنها، أن نظرته أصبحت أكثر إصرارا،كأنه يقول لها: ((الطرق مسدودة،مهما هربت،مهما غامرت في كل الدروب،في النهاية ستعودين إلى هنا)).
تشعر أنها تعرف هذا الرجل منذ دهور،أنه فوق الزمان والمكان،تسمع صوت جدتها تقول لها: ((عنيدة أنت،تريدين أن تحققي كل شيء بنفسك،لا تريدين أن يساعدك أحد))
صوت الكلاب ما زال يتصاعد((لماذا أخاف من هذه الكلاب؟صحيح أنها تنبح،لكنها لم تؤذني أبدا)).الرجل ما زال ينظر إليها،في نظرته شيء من التعاطف،تحاول أن تمشي باتجاهه،تقترب من النافذة،صوت النباح يتخافت في الخارج،تحول نظرها باتجاه الباب الأسود المغلق،فتراه قد فتح،لكن الكلاب بقيت في الخارج.شعاع من النور ينبعث من عيني الرجل،تنظر إليه للمرة الأخيرة بعينين مفعمتين بالحزن والحنين؟،ثم تمشي بخطوات واثقة باتجاه الباب المفتوح.

1991/2/12

الخزانة

للمرة الثانية تأمل الخزانة، شم رائحة الصنوبر،رأى صورته في المرايا الثلاث المزخرفة بعروق العاج،ثم ألقى نظرة على جدته العجوز التي رفعت رأسها الصغير وغمغمت بصوتها الواهن:كما قلت لك يا بني،هذه الخزانة قطعة من روحي،أغلى أثر خلفه المرحوم جدك،حاول أن تعيد طلاءها،وتصلح ما فسد منها.

تأوهت الجدة،ثم تابعت:- سترى في القسم الأول من الخزانة بعض الصابون المعطر طاسة حمام نحاسية وزرة مطرزة بماء الذهب وبعض الأشياء التي أحضرها جدك في أسفاره الكثيرة.

أما القسم الثاني فيمكنك أن تضع فيه أعز الأشياء إليك.

والقسم الثالث اتركه فارغا لأولادك وأحفادك.

كانت الغرفة التي ترقد فيها الجدة المريضة كبيرة بعتبتها الواسعة،وسقفها المقنطر،ونوافذها الكثيرة تشرف على فناء واسع تظلله شجرة جوز كبيرة.

غادرت الجدة غرفتها إلى قبر صغير يتسع لجسدها الضئيل. حين عاد إلى الغرفة،نظرت إليه الخزانة

الفخمة بمراياها الثلاث،ناشدته أن ينقلها إلى بيته،تساءل في نفسه:كيف سيتسع بيتي الصغير لهذه الخزانة؟ لو أنني أجعلها أصغر قليلا
نظر تاجر المفروشات إلى الخزانة بشراهة شديدة

- سأصلح لك الخزانة وأجعل حجمها أصغر،وآخذ الخشب الفائض أجرا

بعد زمن - هل أصلحت الخزانة؟

- نعم،خذها،إنها أمامك
- ما هذه الخزانة الصغيرة؟
- هذا ما بقي من الخزانة،ألم تطلب مني أن أجعلها أصغر
- نعم،طلبت منك أن تجعلها أصغر قليلا كي يتسع لها بيتي،لكنك لم تبق منها شيئا

اقترب من الخزانة....
((أين المرايا؟أين عروق العاج؟))
فتح أبوابها الثلاثة

- لقد حافظت لك على الأقسام الثلاثة كما أوصيتني

شم الخشب- أين رائحة الصنوبر؟ هذه ليست خزانتي،إنها غير مصنوعة من أخشاب الصنوبر

- أتكذبني؟ إنها خزانتك نفسها بحجم مصغر

- ((ماذا ستسع هذه الخزانة؟أين سأضع ذكريات جدي؟أين سأضع نفائسي؟أين سأضع آمالي؟))
1991/8/15

الدرج

بخوف نظرت إلى الدرج،التفتت إلى حارس المبنى،تساءلت((الطابق السابع!))

- نعم،المدير في الطابق السابع،المصعد معطل،ستضطرين إلى صعود الدرج.

ابتدأت تصعد الدرج((ليتها لم تلبس حذاءها ذا الكعب العالي، وتنورتها الضيقة،كانت صعدت الدرج قفزا،الله خلق الكون في سبعة أيام،كم تعب في خلق الكون؟!)).

ببطء كانت تصعد،محطة استراحة عند كل طابق،الدرج مرمري،نظيف ولامع،الموظفات يتأملن ثيابها بإعجاب،الموظفون يلتفتون خلفهم كي ينظروا إليها.((كل شيء على ما يرام،لم يضع تعبي سدى أمام المرآة))،عند الطابق السابع كانت تلهث تعبا((كم تعب الله في خلق الكون؟!))

قال لها المدير:استريحي

تحرك على كرسيه الدوار،دق الجرس بجانبه،دخل الآذن:

- فنجان قهوة للآنسة

نظر إليها المدير بتمعن:

- حدثني صديقي عنك،قال إنك ابنة صديق عزيز توفي،أعرف والدك قليلا،كان رجلا طيبا،لابد أن ظروفك صعبة الآن،وأنت مضطرة للتوقف عن الدراسة من أجل إعالة أسرتك،ليس لدينا أماكن شاغرة للعمل،سوى وظيفة واحدة،إذا اقتنعت بها سأعينك فورا

دق الجرس ،جاء الآذن

- خذ الآنسة إلى مدير المستودع

التفت إليها

- عودي بعد انتهائك،وأبلغيني قرارك.

مشى الآذن أمامها،ابتدأ ينزل الدرج،الطابق السابع،السادس،الخامس،....الأرضي.

((نزول الدرج أسهل من صعوده،الصعود إلى الجبل صعب،ويحتاج إلى مهارة،ولكن بلحظة واحدة يسقط الإنسان في الهاوية))

دخل الآذن إلى غرفة صغيرة،نظر إليها مدير المستودع باستغراب:

- أرسلني المدير إليك للاطلاع على ظروف العمل.

- حسنا،تفضلي

مشى أمامها،فتح بابا كبيرا،دخل،دخلت وراءه،نظرت ....الغرفة واسعة،عالية السقف والجدران،ليس فيها سوى خرطوم أخضر طويل،ملفوف بشكل حلزوني،يملأ أرض الغرفة.

قال لها الموظف:

- أترين هذا الخرطوم؟ وظيفتك هي غسل درج الشركة وممراتها كل يوم به،الموظفة السابقة أحيلت إلى التقاعد منذ أسبوعين.

خرجت من الغرفة،ابتدأت صعود الدرج،عند كل طابق كانت تستريح،تتأمل الموظفين بثيابهم الأنيقة،الموظفات بكعوبهن العالية،طقطقة الكعوب أزعجتها،أحست بصداع شديد في رأسها، وشه في أذنها، أخيرا.. الطابق السابع..

نظر إليها المدير بتساؤل،أجابته:- سأفكر في أمر الوظيفة وأعود غدا.

نزلت على الدرج((ستغسل هذا الدرج كل يوم،إذن لن يمكنها أن تلبس حذاءها هذا،ولا ثيابها هذه،ستلبس ثيابا مناسبة لغسل الدرج، بنطلونا وجزمة مطاطية.

بعد كل آمالها بوظيفة جيدة وراء مكتب مثل باقي الفتيات،تفاجأ بهذه الوظيفة،كل يوم ستغسل الدرج،يبدو أن المدير لديه وسواس بالنظافة))

خرجت من الباب((بيتها في الطابق الرابع،بيوت معظم الأقرباء والأصدقاء في طوابق عالية،دائما تنزل الأدراج،وتصعد الأدراج،نزول وصعود،صعود ونزول...يا للهول!غسل درج بيتها يزعجها،وهو مرة في الأسبوع،وخاصة في الشتاء والبرد القارس، فكيف ستغسل هذا الدرج كل يوم؟!

البارحة دفع جارهم ألف ليرة وبشكل استعراضي للمرأة التي تنظف درج بيتهم،خطر لها أن تقول له: أنا أغسل لك الدرج،وأعطني ألف ليرة،لكنها خجلت،جارهم اغتنى حديثا،ويريد أن يعرف كل الناس أنه غني ويستطيع الدفع.

مشت في الشارع مضطربة،الدرج المرمري يتراقص أمامها،الخرطوم شرنقة خانقة تلتف حولها،وصلت إلى بنايتها،وابتدأت تصعد الدرج.

1990/12/29

عند النافذة

الشارع ضيق ومظلم،خطواته واسعة،يصل إلى نهاية الشارع،يتبعه ظله،يختفي في فسحة من الضوء عند أحد البيوت الممتدة على جانبي الشارع.

تتساءل المرأة عند النافذة((ترى أين ذهب؟هل بيته هناك؟هل جاء إلى المكان الذي تصطاف فيه ؟! هو لا يعرف أنها هنا،يعرف أنها في هذا المصيف،لكنه لا يعرف عنوان البيت الذي استأجرته مع أسرتها،ولو أنه عرف ذلك لما استغربت أبدا،فطالما أحست أنه يعرف عنها أشياء كثيرة،لكنه لا يصرح لها بذلك،وأنه يحاول أن يتعرف إلى كثير من الناس الذين قد يعرفونها ليكتشف المزيد)).

إذن!اختفى الرجل ذو البذلة البنية،والحذاء الأبيض في ذلك الشارع الضيق ((إنه لا يلبس حذاء أبيض أبدا،يحب اللون البني ومشتقاته،الأبيض لا ينسجم مع البني،وهو حريص على انسجام الألوان)).

تبتعد المرأة عن النافذة،تنظر إلى ساعتها،الساعة العاشرة والنصف ليلا،ما زال جهاز التسجيل يبث موسيقى هادئة،تعود إلى النافذة ثانية تتبعها الموسيقى.

منذ قليل تطفل هذا الرجل على مدار نظرها،جاء بخطواته الواسعة،دخل إلى المتجر الذي تطل عليه النافذة،رأى ثلاثة شبان يقفون أمام المتجر،صافحهم،حدثهم قليلا،وانسحب إلى زاوية أمام المتجر،جلس على كرسي صغير وحيدا،يتأمل السيارات والناس،ويدخن،((حين كان يجلس معها أو مع الآخرين كان يتكلم قليلا،يستغرق في أفكاره،ينسحب من الأجواء بهدوء،يهرب من تدخل الآخرين في شؤونه،ويفضل العزلة والوحدة)).

حين غاب الرجل ذو البذلةالبنية في الشارع المظلم فرحت لفكرة أنه بحث عنها،وأنه استأجر بيتا قريبا منها،كانت تعلم تماما أنه ليس هو،ولكن! كم يبدو شبيها به!شعور عميق بالفرح سيطر عليها،شعرت بنشوة،وابتدأت تتمايل مع الموسيقى الهادئة((الرجل ذو البذلة البنية يبدو غامضا مثله)).

عادت ثانية إلى النافذة،رجل يأتي باتجاه المتجر ((هو نفسه،ولكن هل غير ملابسه؟!)).

كان الرجل يلبس قميصا أزرق وبنطلونا نيلي اللون،اقترب من المتجر،صافح الموجودين،وابتدأ يحدثهم،المشهد السابق ذاته((لا،ليس هو،منذ قليل صافحهم،هل يمكن أن يصافحهم ثانية؟! وهذه المرة جاء من اتجاه آخر)).

دخل الرجل إلى المتجر،تحدث مع صاحبه،خرج من المتجر،اقترب من الشبان الثلاثة،ربت كتف أحدهم بتودد،وضع ذراعه حول خصر الثاني،ابتدأ الحديث،والهرج والمرج،أصوات الضحكات وصلت أذنيها،بعد قليل،ذهب الرجل إلى بيت مجاور للمتجر،دخل إلى البيت.انتظرت قليلا عند النافذة آملة أن تراه ثانية((لا بد أن هذا بيته،ولن يأتي ثانية)).
ابتعدت عن النافذة،أطفأت جهاز التسجيل،أطفأت النور،وتمددت على فراشها،وهي تفكر فيما جرى.
في الصباح هرعت إلى النافذة،رأت الرجل ذا البنطال النيلي والقميص الأزرق واقفا أمام باب المتجر،تذكرت أنها بحاجة إلى بطاريات صغيرة من أجل المذياع الصغير الذي تضعه في حقيبتها حين تخرج للنزهة.استقبلها الرجل ذو القميص الأزرق والبنطال النيلي بابتسامة لطيفة،تأملته((حقا! إنه يشبهه قليلا!))
سألته:- هل يوجد عندك بطاريات صغيرة؟
نعم،عندي اثنتان فقط،هل يكفيك ذلك؟
نعم
يعطيها كيسا صغيرا غير مختوم،فيه بطاريتان،تشتري علبة محارم وصابونا.
-هل أنت صاحب المتجر؟

نعم،أنا و إخوتي نتناوب العمل هنا
شكرا لك
أهلا بك
تخرج من المتجر،ترى الرجل ذا البذلةالبنية قادما باتجاهها،تتأمل ملامحه((إنه يشبهه أكثر من أخيه))
تعود إلى البيت،تضع البطاريتين في المذياع،لكنه لا يعمل((ترى هل هو معطل؟!أم أنهما فارغتان؟))
ستضطر إلى شراء بطاريات أخرى للتأكد من ذلك.
تذهب إلى متجر في نهاية الشارع، تشتري أربع بطاريات صغيرة في كيس مختوم،تضع اثنتين منها في المذياع،ينبعث صوت أغنية لفيروز: ((بكرة لما بيرجعوا الخيالة،بترجع..)).((إذن البطاريتان السابقتان فارغتان! إنهما مزيفتان)).
شعرت بأنها قد خدعت((هل يعرف البائع أنهما فارغتان وباعني إياهما؟! أم أنه لا يعرف ذلك؟! وهو مخدوع مثلي.))
أحست برغبة في الذهاب إلى المتجر،وإعادتهما إلى البائع،صحيح أن ثمنهما لا يستحق،ولكن شعورها بأنها قد خدعت أزعجها.
شيء محزن أن يشعر الإنسان أنه قد استغل وخدع،عاد إلى ذاكرتها مشهد البارحة،التشابه العجيب بينه وبين البائع((قد يكون هو أيضا مزيفا وفارغا

مثل هاتين البطاريتين،قد تكون مشاعري وأحاسيسي مزيفة)).
شعرت بالأسى،أحلامها ومشاعرها الدافئة تتحول إلى إحساس بالفراغ والخديعة،((ترى لماذا تنتهي الأشياء الجميلة بطريقة محزنة؟!)).
1990/7/11

صباح لطيف

- لطيف هذا الصباح

نظرت حولها،صافحتها الأشجار الكثيفة المحيطة بالمكان،الجبال،شلالات المياه.

- عرفت أن المكان سيعجبك،لذلك أتيت إليه.
- شكرا.

حركت السكر في كأس الشاي،رفعت الكأس وابتدأت ترشف منه بهدوء وتلذذ.

جبل صغير اقتحم مجال نظرها بالأشجار الصغيرة الخضراء على سفحه.

- ما أجمل هذا الجبل!((يا جبل البعيد خلفك حبايبنا))
- - وهل هم خلف الجبل؟
- لا أحلم بذلك،ألا يحق لي أن أحلم؟أتصور أن أصعد الجبل،وأهبط إلى الطرف الآخر،فأجد حبيبا ينتظرني بكل ألقه وزخمه.
- غريب!دائما يبحث الإنسان عن المجهول،قد يكون الحبيب بجانبك وأنت لا تدرين،قد يكون أمام أنظارك وأنت تحلمين بالذهاب خلف الجبل.

ضحكت..- أنت تتشيطن،كفاك شقاوة...
نظـــــرت حولها،تأملـــــت المكان،الطـــــاولات الخشبية،كراسي القش،شجرة الجوز الكبيرة التي تظل المكان المفتوح للشمس والهواء

- يشعرني هذا المكان بالحرية،أكره الأماكن المغلقة.
- كعادتك تنقلين نظرك في كل الأماكن إلا وجهي،انظري إلي،العين مغرفة الكلام،أم أن وجهي لا يعجبك.

نظرت إلى عينيه،عيناه جميلتان فيهما شفافية وطيب،حولت نظرها عنه وعادت تتأمل الأشجار.

- أما مللت من الشرود((اللي آخذ عقلك يتهنى))

دائما يوجهون إليها هذه الملاحظة((حين تحدثين الآخرين لماذا لا تنظرين إلى وجوههم))
سألت نفسها((هل هو شيء من الحياء بسبب تربيتها الصارمة؟أم أنها محاولة للتهرب من مواجهة المواقف المحرجة؟أم أنها دائما تستغرق في عالمها الداخلي وتنسى المحيطين بها؟!))

- الهواء منعش
- وبوجودك صار منعشا أكثر
- أنت تجامليني

تمطت،رفعت شعرها عن جبينها،شعرها الطويل الذي يصل حتى كتفيها تطاير مع الهواء،تمايل بنعومة.

- جميل أن يتطاير الشعر مع الهواء،يشعر الإنسان أن الدنيا مازالت بخير
- أحسدك على تفاؤلك،تطاير شعري في الهواء يشعرك بالفرح..آه كم أنا متطلبة من الحياة!
- منذ سنة لم أرك.

تدندن ((زورونـي كل سنة مرة،حرام تنسوني بالمرة))

تتمايل مع اللحن..ثم..

- حقا!منذ سنة لم أرك،نحن لا نرى بعضنا إلا مصادفة
- ألم تتزوجي بعد؟!
- - كما ترى مازلت طليقة خارج القفص
- هل أنت مضربة عن الزواج؟أم أن الشباب ليس عندهم نظر؟!
- لست مضربة،والشباب عندهم نظر،ولكن! أنا التي ليس عندها نظر،وأخشى التورط.
- ستتورطين كما تورطنا،مصيرك مثلنا،أتدرين؟! الحياة دون زواج مشكلة،والحياة بعد الزواج مشكلة أيضا

- يبدو أن الورطة الكبرى بدأت حين ولدنا،نحن متورطون منذ البداية،وما علينا سوى أن نستمر في التورط،وللخلاص من ورطتنا علينا أن نتورط أكثر فأكثر.
- ماذا تفعلين هذه الأيام؟
- أذهب إلى وظيفتي،آكل،أشرب،أنام،أقرأ،أعيش حياتي كأي مواطن صالح.
- ولكن أنت مسؤولة عن نفسك فقط،مشكلتك سهلة،وجهك يبدو مرتاحا،وليس لديك هموم مثلنا نحن المأسوف على شبابنا،هموم الزواج،والأولاد،والملل...

تتأمل الشلالات الصناعية أمامها،تحس بمرور الزمن والحياة الرتيبة.

- كم يستمر الحب بعد الزواج؟
- سنة أو سنتين،بعد ذلك يصير نوعا من الألفة والصداقة،أنصحك بالزواج من أجل الأطفال فقط،جربي الشعور بالأمومة،الأطفال على الرغم من أعبائهم ينسون الإنسان همومه،فيشعر بالتجدد.
- ولكن إلى أي عالم سآتي بطفل؟!أذكر أنني كلما كانت تضيق بي الدنيا كنت ألعن أهلي لأنهم أتوا بي إلى العالم دون استشارتي.

- ((من ساواك بنفسك ما ظلمك)).سيكون للطفل مثل حظك،وقد يكون حظه أفضل من حظك،أتخشين اللعنة يوما؟! ستجدين دائما من يلعنك،ويشتمك،وليست الحياة بائسة كما تتصورين،قد يكون فيها أمور جميلة..ما أحوال قلبك؟!
- لا أدري،سؤالك صعب جدا
- ألا تحبين أحدا؟
- لا أدري إن كنت أحب أم لا؟!
- جوابك غير واضح
- لأن وضعي ملتبس وغير واضح.
- أحبيني إذن
- أنت تخص غيري،ولا أقبل المشاركة
- ألم يعجبك أحد؟
- صدقني إنها مشكلة حقيقية،قد أحس بميل ما تجاه أحدهم،ولكنني لا أقتنع به،وقد أقتنع برجل ما،ولكني لا أحس بأي ميل عاطفي تجاهه،فقط شعور بالألفة والود،صعب أن تحل المعادلة لدي،أن يوجد العقل والعاطفة معا
- أنت تطلبين المستحيل،أغمضي عينيك،وألغي عقلك،وسوف يأتي الحب بسهولة،لماذا تعقدين الحياة؟!

- الحياة معقدة،أنا لا أعقد شيئا.
- ولكن علينا أن ننظر إليها ببساطة كي نستطيع الاستمرار.
- الحديث في هذه المواضيع لا ينتهي،ما رأيك أن نذهب الآن
- كما تريدين،مصادفة لطيفة أن نلتقي،وأن نجلس هنا،ونشرب الشاي،متى نلتقي ثانية؟!
- لا أدري،قد نلتقي بعد شهر أو سنة،هل قرأت رواية لفرانسواز ساغان بهذا الاسم؟
- لا،لم أقرأ هذه الرواية
- رواية لطيفة تستحق القراءة
- بعد شهر،أو سنة،أو سنتين،قد نلتقي،المدينة ضيقة،لا بد أن تجمعنا الظروف.
- كيف سنكون في ذلك الوقت؟هل سنبقى نفكر بالطريقة ذاتها؟أم أننا سنتغير؟ وإذا التقينا،فعم سنتحدث؟

وهل سنلتقي في صباح لطيف؟أم في مساء تعيس؟

- ربما نلتقي ظهرا
- المهم أن نلتقي
- إذن وداعا،وإلى اللقاء.
- وداعا

19/7/27

الفنان

تتناثر اللوحات على الجدران،تتوزع التحف هنا وهناك،حديقة صغيرة تبدو من النافذة تحيط بالمرسم.
نقل عدنان عينيه على الجدران،صافحته صورة امرأة عجوز،صورته مع زوجته وولديه،صورة اقتطعت من إحدى المجلات لغجرية تلبس أطواقا،وأساور من الخرز،وتحيط رأسها بتاج من الورود.
نظرت المرأة العجوز نحوه،ابتسمت له وضمته بحنان((كم أنا مشتاق لك يا أمي؟!))
قبل صورة الغجرية،وابتعد عنها قليلا،تنهد بحسرة،استرخى على الأريكة،وبدأ يتأمل.
خرجت الغجرية من الصورة،اقتربت منه،سمع صوت أساورها،شم رائحة ورودها،صار المرسم غابة شائكة،ركض معها في الغابة،وصل إلى البحر،خلعت أساورها وأطواقها،رمت نفسها في البحر،رمى نفسه خلفها،اختفت عن أنظاره،فجأة أشرقت من بين الأمواج تقطر ماء،ضحكت،ثم اختفت ثانية في البحر،بحث طويلا،سبح إلى مسافة بعيدة،استراح قليلا على ظهره،وانتظر ظهور الغجرية،انتظر طويلا،لكنها اختفت،عاد حزينا إلى الشاطئ،فتش عن

آثارها،لم يجد شيئا.تنشف تحت الشمس المشرقة،توغل في الغابة،وصل إلى مرسمه،فتح عينيه،كانت الصورة على الجدار تنظر إليه بلا مبالاة.
أخذت منى تتجول في أنحاء المرسم،رأت صورة الغجرية،قالت له:

- حقا!هذه الصورة تشبهني كما قلت لي.
- أتعرفين يا منى منذ رأيت هذه الصورة في المجلة وأنا أحلم بها،أتمنى أن أجد من تشبهها،وحين رأيتك قلت هذه هي من أنتظر
- ألم تجد فتاة غيري تشبه هذه الصورة؟
- نعم،حين كنت طالبا في كلية الفنون أحببت زميلة لي تشبهها،ولكني لم أجرؤ على التقرب منها،فقد كنت خجولا،وفقيرا ليس لدي المال كي أهتم بهندامي،وأعجب الفتيات،لقد نسيتها،وحين رأيتك فرحت كثيرا.
- أشكرك،ولكن أنا مرتبطة بشخص آخر.

تأملت رجاء المرسم باستخفاف،هل هذا هو مرسمك؟إنه صغير وحقير،سأخرجك من هذا المكان،إنه لا يليق بمقامك،سأجهز لك مرسما كبيرا وفخما،سوف تبيع لوحاتك بسعر مرتفع،وتصبح غنيا مشهورا.

- اسمعي يا رجاء،صحيح أنا أحببتك،ولكني لا أباع ولا أشرى بالمال.
- مغفل، مغفل كبير، مثالي، غير واقعي، كنت سأصنع منك فنانا عظيما،ولكنك هاوي فقر وتعاسة

وخرجت غاضبة.

ارتفع صوت زوجته:((كل شيء للرسم،كل شيء للفن،لا تهتم ببيتك وأولادك،فهمنا أنك فنان،ولكن البيت له متطلبات كثيرة،وأنت لا تقدر ذلك)).

- يا ابتسام تعرفين مشاغلي وهمومي.
- مشاغلك.. مشاغلك. .دائما الرسم، والفتيات الجميلات بحجة رسم وجوههن،دائما تستلقي على الأريكة،وتنظر إلى السقف،منذ زمن لم نتبادل أي حديث،هل أنت زوج أم ماذا؟ أنت لوحة مثل لوحاتك.

همست ابتسام برقة: طبعا يا عدنان، هل هذه الأمور تحتاج إلى سؤال؟حين سنتزوج سأساعدك على النجاح،سأكون ملهمتك،وشريكة حياتك.

- ألن تتغيري بعد الزواج؟
- أبدا سأكون القنديل الذي يضيء دربك كي تصبح فنانا عظيما.

ارتفع صوت زوجته: ماذا ستفيدني لوحاتك هذه؟ تقول لي إنها تمثل قفزة في الفن الحديث،تقول لي إنك تسبق زمنك بهذه اللوحات،وأن الناس بحاجة إلى ثقافة فنية كي يفهموك،هل ستطعمنا هذه اللوحات الحديثة خبزا؟! لن يشتريها أحد،ارسم ما يرغبه الناس كي يشتروا لوحاتك، دعنا نخرج من هذا المنزل الصغير،صار لدينا أولاد ويلزمنا منزل أكبر،كل مرة تقول لي:يجب أن نضحي في سبيل الفن،ثم لماذا لا تأخذ ثمن اللوحات التي ترسمها لوجوه أولئك النساء اللواتي يترددن باستمرار إلى مرسمك،هذه يجب أن نراعيها لأنها صديقة،وتلك زوجة صديقي،من أجل خاطره يجب أن أكرمها،وتلك عيناها جميلتان..كم أنت مغفل وأحمق؟! تراعي كل الناس،ولا تراعي زوجتك وأولادك،هل تظن راتبي يكفي من أجل المعيشة؟!))
اقتربت أمه منه،ربتت رأسه،ضمته بحنان،تضاءل،تصاغر،صار طفلا في العاشرة،أعطته ثمن فرشاة وألوان،قالت له: ((لقد خبأت هذا المال دون علم والدك،خذه واشتر ما يلزمك)).
أراها رسوماته الأولى،فرحت وشجعته،علقت لوحته الأولى على جدار غرفة الجلوس كي تراها دائما.

همست أمه في أذنه((لا تخف يا عدنان ،ستدرس في كلية الفنون الجميلة،وأنا أعدك بإقناع والدك،أنت فنان موهوب،سأقطع المال عن نفسي،وأرسله لك.

- أين القميص الذي اشتريته لي يا ابتسام؟
- لم أشتر لك شيئا،محمد كان يلزمه حذاء،قلت محمد أهم،طفل يجب أن يلبس حذاء جديدا في العيد.
- أين ثوبك الجديد؟
- لم أشتر لك شيئا،كان حسام معي في السوق،وأعجبته بعض الألعاب،اشتريتها له بدلا من الثوب،طفل..ولا ينبغي أن أحرمه شيئا.
- ليتني كنت طفلا مثلهما كي تهتمي بي!
- ماذا تظن نفسك؟!هل تعتقد نفسك طفلا كي أدللك؟أنت تغار من ولديك،تريدني أن أهملهما من أجلك،أنت أناني،لم أكن أظنك هكذا،مهما فعلت من أجلك تتهمني بالتقصير،أنت لا تستحقني لأنك لا تقدرني، حذروني من الزواج منك، قالوا: عدنان هوائي ومزاجي، سيتعبك كثيرا، ولن يخلص لك، ليتني تزوجت من التاجر الغني الذي تقدم لي،كنت ساذجة حين أحببتك وتزوجتك.

- غاليتي ابتسام،أنا أريد زوجة تكون كل شيء في حياتي،الزوجة،والأم،والحبيبة،تلهمني،وتؤمن لي ما أريد.
- طبعا يا عدنان، سأكون عند حسن ظنك، ولن تندم على زواجك بي.
- أريد زوجة جميلة تهتم بأناقتها دائما.
- من هذه الناحية لا تخف.
- لقد بدأت تهملين نفسك،منذ إنجابك محمدا وأنا لا أراك إلا شعثاء الشعر،مهملة لمظهرك،لقد زاد وزنك كثيرا،لماذا لا تخففين وزنك؟

- ألا ترى أنه لا وقت لدي لأهتم بنفسي،الوظيفة والأولاد يأخذون كل وقتي.
- طبخت لك الطعام الذي تحبه يا عدنان، زوجتك ليس لديها الوقت كي تعتني بك،أنا مشتاقة لك جدا يا بني،طمئني عن أخبارك،هل أنت بخير؟أراك متعبا وتعيسا.
- هموم الحياة يا أمي،وابتسام لا تفهمني،ولا تقدر ظروفي
- ابتسام لديها همومها ومشاغلها هي الأخرى،يجب أن تقدر ظروفها أنت أيضا.

- آه يا أمي!أنا متعب جدا،الحياة مرة،الزوجة لا يمكنها أن تصبح أما أبدا،الأم هي الوحيدة التي تعطي دون مقابل، كيف ستكون حياتي بدونك؟

يقترب وجه أمه الحنون، يقترب وجه ا بتسام المتعب، تقترب غجريته بورودها، وأساورها، يشعر أنه محاصر، محاصر...محاصر..

يترك أريكته،ويجلس أمام طاولة الرسم،يمسك بالفرشاة،ويبدأ بمزج الألوان،بياض اللوحة يتحول إلى ألوان متداخلة،ظلال متداخلة،تمتزج الوجوه،وجه الأم ،وجه ابتسام،وجه الغجرية،الغابة،البحر،وتكتمل اللوحة.

1899/7/13

قطة أم سوسو البريئة

- بهية!فنجان قهوة

وتجلس أم سوسو على كرسيها المفضل في غرفة الجلوس،تدخن سيجارة تلو الأخرى،تشرب فناجين القهوة المتتالية،تتابع فيلما في الفيديو،تنظر تارة،وتسرح بأفكارها تارة...ترى هل ترسل البلدية لها أبا نذير؟! إذا أرسلوه كانت كارثة.

منذ ثلاثة أعوام أصر على إعدام كلبها،لأنه يزعج المارة بصوته،ويتهجم عليهم بشراسة،حتى شكوا أنه مصاب بالكلب...هذا الرجل عنيد وعقله يابس،ولن يفهم مشكلتها.

- بهية!فنجان قهوة آخر

سحب الدخان تملأ فضاء الغرفة،تقوم أم سوسو عن كرسيها بتثاقل، تتمشى بقلق، تمسك فوطة، تمسح الغبار عن الكراسي، تتأمل المكتبة التي تحوي بعض الكتب ذا ت ا لتجليد الفخم والقياس الواحد،تنظر إلى التحف في أرجاء الغرفة،تعود إلى كرسيها،تشعل سيجارة أخرى.

- بهية!هاتي لولو

- تأتي الخادمة بقطة شقراء ذات فرو سميك،عيناها زرقاوان،كبيرة الحجم،منتفخة كخروف صغير،تحدق أم سوسو في القطة بحيرة،ما سبب هذا الانتفاخ؟!إنها ليست حاملا،هكذا قال لها الطبيب البيطري،وبعد أن أعاد الفحص،قال لها: ربما قطتك تأكل كثيرا،أو أن هذا حمل وهمي

تضم أم سوسو قطتها،تداعب رأسها،تشم رائحة فروها،كيف يقول الناس إن رائحتها عفنة،إنها لا تشم شيئا.

- بهية!هل حممت القطة بالشامبو الجديد؟
- نعم

ويدعون أن رائحتها كريهة،الشامبو الذي تستخدمه من أجل القطة لا يستخدمونه هم،إنه من أفخر أنواع الشامبو الباريسية،العطر الذي تضمخ به القطة لا يحلمون به أبدا،وهذه الخادمة بهية تصر أن رائحة القطة مزعجة،ويتهمون لولو بالدخول من نوافذ بيوتهم ليلا، وبإقلاق راحتهم بموائها، وركضها فوق الأسرة، وبالهجوم على أطفالهم، اللعنة عليهم وعلى أطفالهم!

لولو التي تعبت حتى حصلت عليها ،تتهم هكذا، لولو ذات الأصول الأوروبية تتهم بالقذارة!

تتمشى أم سوسو في الغرفة جيئة وذهابا،تذهب إلى غرفة نومها،تنظر في المرآة،يطالعها وجهها الأبيض المشرب بالحمرة،شعرها الأشقر،عيناها الزرقاوان المتعبتان،آه من همومها الكثيرة المتراكمة!

البارحة في استقبال أم محمد أصيبت بكثير من الصدمات المدمرة،قالت الست ابتهال بشيء من الغمز الخفي: ((كيف حال ابنك سامي؟هل نجح في الثانوية العامة؟ ابني فؤاد صار في السنة الثالثة في كلية الطب))

ابنها سوسو علة حياتها..((يا بني يجب أن تدرس كي ترفع رأسنا بين الناس، الناس يحترمون من لديه شهادة،خذ الشهادة،واعمل مع والدك في التجارة)).ولكنه يصم أذنيه عن سماعها، يهمل في دراسته، ولا يعمل مع والده، يمتطي سيارته الفارهة، يطارد الفتيات في الشارع سهراته ومصاريفه الدائمة لا تنتهي،دللته كثيرا،إنه ابنها الوحيد،البنات لم يتعبنها أبدا،زوجتهن بعرسان أغنياء،واطمأنت إلى مستقبلهن.

أم سمير فاجأتها بأنها ترتدي فستانا مثل فستانها،ظنت أنها الوحيدة التي ترتدي مثل هذا الفستان الذي أتت به من لندن،فإذا بأم سمير تنافسها،وتنغص عليها سعادتها،وصدمة أخرى تلقتها حين سألتها إحداهن:أم

سامي أين كنت تسكنين قبل أن تسكني في حي الشهباء؟

كم حاولت إخفاء أصلها؟وكم حاولت إنكار سكنها القديم في بستان القصر،هذا الماضي الذي تريد الهرب منه،حين كانت فقيرة منذ خمسة عشر عاما،وبدأت تعمل مع زوجها بالتجارة بين حلب وتركيا،وفتح الله عليهم،فزوجها ذكي و(حربوق)،يعرف من أين تؤكل الكتف،وهكذا ازداد الرزق،وتوسعت الأعمال،وارتاحت هي من التعب والشقاء.

تأتي بهية:- جاء موظف البلدية،وهو ينتظرك في غرفة الاستقبال.

يجلس أبو محمود على إحدى الأرائك،يتطلع مبهورا إلى الفرش الفاخر، الثريات الفخمة

((آه كيف يعيش الناس وأنت في قنك الحقير؟

ينظر إلى حذائه،يمسح الغبار عنه،يتململ في جلسته.

تأتي أم سوسو :- أهلا وسهلا

يقف أبو محمود:- أنا مندوب البلدية،جئت للتحقيق في شأن قطتك

- أهلا وسهلا..كنت أنتظرك..أهلا..أهلا..تفضل استرح

- بهية..هاتي شراب البرتقال البارد لضيفنا العزيز،لا بد أنه عطشان،سينعشه الشراب
- تبتسم أم سوسو ابتسامة عريضة:- تشرفنا بحضورك،على العين والرأس،البلدية ومندوب البلدية،كيف حالك؟كيف حال المدام والأولاد؟

تقدم له بهية البوظة،تبتسم أم سوسو ابتسامة مشرقة

- قطتي مظلومة،كل يوم بهية تحممها بالشامبو،وترشها بالعطر
- بهية..أعطني لولو..

حين تدخل القطة،رائحة العفونة تنتشر،تقترب منه أم سوسو تحمل القطة

- انظر ما أجملها

يقترب رأس أم سوسو منه،يشم أريج عطرها الثمين،تقترب القطة،رائحة العفونة تهجم على أنفه،تبتسم أم سوسو،يغرق في ابتسامتها الجميلة،عينا القطة زرقاوان،عينا أم سوسو زرقاوان،عطر أم سوسو ..عفونة القطة،أم سوسو جميلة،القطة جميلة

- أهلا وسهلا أبا محمود،أين سرحت؟شرفتنا بحضورك،ستبقى اليوم عندنا على الغذاء
- شكرا،لا تتعبي نفسك
- ولو،تعبك راحة،أنت ضيف عزيز

الغذاء شهي الطعم،لم يذق مثله منذ زمن بعيد،الفواكه،الحلويات.
القطة تقبع بجانب الأريكة،تنظر إليه بوقاحة،مزهرية الكريستال تتألق أمامه بزخرفتها الرائعة

- هل أعجبتك هذه المزهرية؟خذها،ستفرح بها المدام

أم محمود ورائحة البصل والثوم،أم سوسو وعطرها الناعم،ثوب أم سوسو الفاخر،ثوب زوجته المتواضع،ملامح الصحة على وجه أم سوسو،وجه زوجته النحيل،ضجيج الأولاد،مطالبهم التي لا تنتهي.
الأساور الذهبية تتألق في يدي أم سوسو البضتين،عيناه فوق الأساور،تخلع أم سوسو سوارا من يدها

- هل أعجبك؟

يحمر وجهه

- هذا السوار هدية مني للمدام
- لا،شكرا
- ولو يا أبا محمود،أنت إنسان طيب،وتفهم،وأنا أقدر الناس الطيبين

السوار في يد أم محمود،لن تلبس السوار،ستبيعه،وتشتري ملابس للأولاد،آخر مرة

باعت خاتم زواجهما، واشترت لهم أحذية، لن تسأله من أين أتى بالسوار،فيما مضى،كانت تسأل،الآن كفت عن السؤال،تأخذ المال منه بنظرة منكسرة،وصمت مطبق.

((لو أن عندي مثل هذه الفيلا،ولدي زوجة جميلة مثل أم سوسو! لعن الله الشيطان!كيف أنسى أم العيال الصابرة الصامتة،التي تعيش معي في السراء والضراء؟!أين أرميها؟!أستغفر الله،القناعة كنز لا يفنى،يا رب،المهم السترة،هم الأولاد يكسر ظهري.

أم محمود ونظرتها المنكسرة..الأولاد وأفواههم المفتوحة..أيديهم الممدودة،القن الذي يعيش فيه،منظر اللحوم المغري عند القصاب،يا رب لماذا تضعني دائما في هذا المأزق؟!لماذا أدوس كرامتي دون رحمة؟!

- أبا محمود!أنت تشرد كثيرا،لا بد أنك مشغول البال،ومهموم،تعال غدا،وزرنا مساء،سيكون أبو سامي هنا،وستسهر معنا في نادي النخبة،ستعجبك السهرة،ستنسى همومك،وتتسلى،عدني أنك ستأتي،سيكون أبو سامي سعيدا بوجودك،أنت رجل لطيف ومهذب.

وتشيعه أم سوسو إلى باب الفيلا،يخرج محني الرأس متثاقلا.

رائحة القطة العفنة،أريج عطر أم سوسو،السوار الذهبي،مزهرية الكريستال،السهرة في نادي النخبة،الفيلا الجميلة.

يكتب في تقريره: ((القطة لولو حضارية،وبريئة من كل ما نسب إليها،الرائحة العفنة مصدرها الخضار المتعفنة لدى بائعي الخضار في حي الخالدية المجاور)).

1988/8/20

علي بابا و (الأربعين حرامي)

علي بابا!أيها الأحمق! كيف قادتك قدماك إلى هذه المغارة اللعينة؟طالما حلمت باستكشافها، حسنا! هل أرضيت فضولك؟

منذ زمن وأنت ترحل صوبها، تقترب من بابها، ثم لا تتجرأ على الدخول، الكثيرون يفعلون مثلك، يطوفون حولها، ثم يعودون إلى منازلهم خائبين.

كلهم يعلمون بوجودها ويبتعدون عنها، وكأنها مكان مقدس لا يحق لأحد تدنيسه.

هذه المرة كان فضولك أكبر من كل مرة، وأغراك الأصدقاء، قالوا لك:لم لا تجرب الدخول؟ المغارة صارت وهما يسيطر على أفكارنا، لم لا نتخلص من هذا الوهم ونعيش حياتنا براحة بال؟!إنها تستحق المجازفة، سنختبئ في أحد سراديبها، ونكتشف أفراد العصابة، سنبتلع أنفاسنا كي لا يحسوا بنا.

وهكذا جئت تحمل في ذهنك عنها قصصا وأساطير عجيبة يتحدث بها الناس، أخيرا ستكتشف الحقيقة،سترى أفراد العصابة دون أن يروك، ولربما استطعت التخلص منهم وإراحة سكان المدينة، ولربما أصبحت بطلا، في أسوأ الأحوال ستأكل من موائدهم العامرة، فالناس يقولون:إن الطعام الذي يتركه أفراد

العصابة بعد أن يشبعوا يطعم كل جياع المدينة، على الأقل ستأكل طعاما شهيا بدلا من طعامك الرديء، وسترى النفائس المخبأة، وهكذا أضعت يومك في المغارة، إنه نهار مشمس وجميل، وأنت تقبع في هذا الوكر الكئيب، تنتظر الأربعين حراميا، تريد أن تعرفهم، حتى لو عرفتهم، هل ستتجرأ على التعرض لهم،إنهم مسلحون بالسكاكين يسرقون في وضح النهار دون أن يحس بهم أحد.

أكلت حقا! ولكن كان للطعام نكهة غريبة، وكلما أكلت ازداد شعورك بالجوع،إنه طعام غير مبارك.

المغارة تمتد واسعة، سراديب لا نهاية لها، جرذان وصراصير في الزوايا، موقد مهجور يتربع أمامك، تشعل النار فيه،ويبقى البرد يجلدك، صناديق كبيرة فارغة، صور قبيحة تشوه الجدران، أشكال فوانيس تنتشر في الزوايا، جهاز تسجيل، أشرطة لأغان تافهة، جهاز تلفزيون، فيديو، ترى أين المسروقات؟ هل يوجد مخابئ سرية؟ وتفتش فلا تجد شيئا، هل ظننت أفراد العصابة من الغباء بحيث يضعون مسروقاتهم في هذه المغارة التي يعرف الجميع أنها لهم، يا لك من أبله يا علي بابا !

تضيع يومك وأنت جالس مع الأصدقاء تثرثر، وتأكل، وتنتظر قدوم العصابة، صار أصدقاؤك غرباء عنك،

كلماتهم لا تصل أذنيك، أخفاهم الظلام، فصاروا أشباحا، صاروا أشياء، مثل المنفاخ بجانب الموقد، غطسوا في الأرض فلم ترهم، علقوا على الجدران من رقابهم، لعل لعنة المغارة أصابتهم، اللعنة التي يتهامس بها الناس، كي يخفوا كل من تسول له نفسه بالاقتراب منها.
شيء خفي يسلب منك أحاسيسك وأفكارك، شعورك بالوجود، عليك يا علي بابا أن لا تغامر ثانية، إلى أين سيودي بك الفضول؟ ستدفع الثمن غاليا، صحيح أنك لم تدخل بإرادتك الكاملة، أغراك الأصدقاء، ولكنك شخص عاقل، والعاقل يحاسب.
أنت منشطر ومنقسم إلى أجزاء صغيرة، فكيف تلملم أجزاءك؟! لا بد أنك حسبت نفسك علاء الدين، وظننت الفوانيس المتناثرة فوانيس سحرية، فإذا بالفوانيس لمبات كهرباء تحيط بها بلورات ملونة.
غرر بك، حرمت صوت المطر، وضوء الشمس، لتحشر نفسك في كهف الوحوش هذا.
حين قررت مع الأصدقاء أن تعودوا إلى العالم بعد أن قطعتم الأمل من ضبط العصابة في الجرم المشهود، كان الليل قد خيم على الكون، عدتم مشيا في طرق مهجورة، البرد شديد، وتشعر بالجوع، وكأنك لم تأكل قبل قليل.

المدينة تمتد أمامك كبيرة وغامضة، العالم واسع لا بحد، الهدوء مخيم، وفجأة تسمع جلبة وضجيجا، تتفرس أمامك فترى أشباح أشخاص قادمين، مقنعين بظلام الليل، يحملون الأسلاب في أيديهم، وأنت فتشت المغارة جيدا، فلم تجد شيئا، فإلى أين يذهب هؤلاء بغنائمهم؟
تعد الأشباح التي تمر أمامك، ولا تنتهي من العد، وها إنك تهرب خائفا من أمامهم وكأنك أنت الحرامي وهم الشرفاء، ها إن أصدقاءك الذين ادعوا الجرأة يهربون أيضا خشية أن يضبطوا بجرم كشف أفراد العصابة، وعندها الويل لكم من انتقامهم وبطشهم.
حين تصل إلى منزلك لتحتمي فيه، تجد المنزل باردا ورطبا كمغارة الأشقياء، ترى هل أحضرت معك لعنة المغارة؟
في الصباح تشرق الشمس، أما منزلك فيبقى معتما، وتشعر بذاكرتك تخونك، ومفاصلك تؤلمك، لأنك أيها الأحمق، حين كنت تنتظرهم في المغارة، كانوا يسرقون منك ضوء الشمس، ويمتصون من أنفاسك ألق الحياة.
1988/1/25

الاحتفال

الأزقة ضيقة وقذرة، ومحمود عبد الباقي يحب الشوارع الواسعة، يشم رائحة القمامة، يشعر بالغثيان. منذ زمن طويل لم يأت إلى مدينة الدخان، كان يجوب المدن ليكتب تاريخ البشر من بدو وحضر.

تبتلعه الأزقة الملتوية، يصل إلى ساحة المدينة ، يوقفه الحارس:

- قف! من أنت؟
- أنا محمود عبد الباقي
- ما عملك؟
- مؤرخ
- ما عمرك؟
- لا أدري
- أين ولدت؟
- في إحدى المدن
- ما هذه الملابس الغريبة؟هل أنت ذاهب إلى حفل تنكري؟
- لا

يتهامس الحارس مع زميله: لا بد أنه أبله، فتشه.

يفتشه الحارس،لا يجد معه سوى قلم وأوراق بيضاء.
-اذهب
يتابع محمود عبد الباقي طريقه، يحس بزحام غير عادي، يتساءل:
- ترى ماذا يجري في هذه المدينة؟
- السلام عليك يا خالتي
ترفع العجوز رأسها لتنظر إليه بعينيها الكليلتين
- وعليك السلام يا بني
- ماذا يحصل في هذه المدينة؟
- آه!ماذا أقول لك؟ هل رأيت الإعلانات في الشوارع؟
- لا
- انظر إليها، وستفهم كل شيء، هذا زمن العجائب
يتابع طريقه، يصدمه مراهق مسرع على دراجته، يتوقف الفتى:
- آسف يا عم
- لماذا أنت مسرع هكذا؟
- لأنني سأذهب إلى البناية المقابلة لمكان الاحتفال، وأتسلق السطح كي أتفرج
- أي احتفال؟

- ألم تقرأ الإعلانات؟
- لا
- اقرأها، وستعرف

يلوح له المراهق بيده، ويمضي سريعا.
يسمع صوت إطلاق رصاص، يرى جنديا في الشارع، يسأله:- من يطلق الرصاص؟
-أتعلم؟! هذه مناوشات بيننا وبين الأعداء، إنهم يحضرون أنفسهم للهجوم على مدينتنا، اعذرني ليس لدي وقت يجب أن أذهب للدفاع عن المدينة.
يمشي محمود عبد الباقي باتجاه الإعلانات((هكذا إذن، يوجد احتفال، ترى بأية مناسبة؟
لا بد أنهم انتصروا على الأعداء، وهم يحتفلون بانتصاراتهم، سأكتب في أوراقي تاريخ هذا الانتصار.
تطالعه الإعلانات على الجدران((لا تدعوا الفرصة تفوتكم، الجائزة الكبرى بانتظاركم))
أسهم تشير إلى مكان الاحتفال، أضواء ملونة، حمراء، صفراء،خضراء. وجوه الناس تختلط مع ألوان الأضواء،تتراقص المدينة بين يدي محمود عبد الباقي كعروس جميلة، يشق طريقه وسط الزحام.

المدينة بئر للأسرار أزقتها ملتوية، يتبع الأسهم، لافتة تنتصب أمامه((اتجه يمينا))
يمشي، يرى بابا كبيرا حوله عدد من الحراس،لافتة أمامه((لا تندهش))،لافتة أخرى((الداخل مفقود والخارج مولود))
يفتح الباب، يدخل إلى قاعة كبيرة مزدحمة بالناس والطاولات والكراسي، يقترب منه رجل بملابس براقة، يعطيه بطاقة مكتوب عليها الرقم ((17))، ويشير إليه باتجاه إحدى الطاولات، يمشي باتجاه الطاولة، تيار من الهواء الساخن يلفح وجهه، يلتفت، يرى نافذة، تطير الأوراق البيضاء من يده باتجاه النافذة((أين سأكتب تاريخ المدينة؟)) بعد لحظة تأمل ((سأكتبه في ذاكرتي))
يجلس على الطاولة، يتفحص الوجوه المتراقصة أمامه، الأضواء الخافتة تنتشر في زوايا القاعة، والناس حوله يتوافدون، يجلسون حول الطاولات، أحاديث متناثرة تقترب من أذنيه.

- أنا متعب جدا، هموم هذه المسابقة أتعبتني، فأنا أحضر لها منذ زمن طويل، لم أترك نوعا من أنواع السمن والدهن والأعشاب والزيت إلا استخدمته كي يطول شاربي وأفوز، كل

الوصفات الشعبية، وكل الأدوية المركبة التي تقوي بصلة الشعر جربتها.

- لا تشك لي، فقد تعبت أكثر منك، لقد جربت معظم المستحضرات الأجنبية التي سمعت عنها،وسافرت إلى باريس من أجل الحصول عليها، سأحزن كثيرا إذا لم أفز بهذه الجائزة.
- ولماذا تسافر إلى باريس؟ وسوق العطارين مليء بالوصفات الشعبية المجربة؟!
- أنا أحب استخدام المنجزات الحديثة.

ينظر محمود عبد الباقي حوله، تلتمع أمام عينيه يافطة مضيئة((لا تستغرب))، يافطة أخرى((لا تندهش)).

يضيء نور باهر على منصة الاحتفال،رجل متنكر بزي مهرج يقف، يقول:

- أسعدتم مساء حضرات المتسابقين

يصفق له الحضور، يتابع:

-نرحب بكم في هذه المناسبة السعيدة،ونبدأ المسابقة بعد قليل،لجنة التحكيم مؤلفة من أشخاص مشهود لهم بالبراعة والنزاهة، الفائز الأول سيأخذ جائزة نقدية كبيرة، نبدأ الاحتفال،نفتتح الحفل بالغناء، نقدم لكم المطرب الساحر بلبل السهران.

يدوي التصفيق، يقف رجل أمام الميكروفون، يحشرج بصوت قبيح،والناس يصفقون ويرقصون معه، يسد محمود عبدا لباقي أذنيه.
أما الآن فمع الراقصة الكبيرة سمارة.
تخرج راقصة نصف عارية، تهز خصرها، وبطنها،وذراعيها وسط التصفيق، يقوم أحد الحضور،يدس مبلغا من المال في صدرها، يقوم آخر،يسكب زجاجة خمر عند قدميها.

- انتبهوا! ستبدأ المسابقة الآن، ثم نتابع فقراتنا الفنية.

يقوم الرجال الجالسون حول الطاولات، يمرون أمام اللجنة،يقف رجل بيده متر للقياس،يقيس أطوال شواربهم،يسجل القياسات على الورق،وبجانبها اسم كل واحد منهم.
ينبعث محمود عبد الباقي واقفا،لافتة مضيئة تنتصب أمامه((لا تسأل))،لافتة أخرى ((لا تتدخل)).
يفتح فمه كي يتكلم، تنتصب لافتة((انظر واسكت)).
يصيح:- ما هذا؟
تنتصب لافتة((لا تتجاوز حدودك)).
يجلس مرغما، فجأة يشير إليه الرجل الواقف:- أنت تعال ، جاء دورك

لا يتحرك من مكانه،تلمع أمامه لافتة((قم بسرعة))
يقترب من الرجل،يقيس الرجل طول شاربه،يعود إلى مكانه.
يقف عريف الحفل أمام مكبر الصوت:- أما الآن فنقدم لكم المطربة الناعمة عصفورة الوادي ريثما تعلن لجنة التحكيم اسم الفائز بالجائزة
تقف المطربة وراء مكبر الصوت تغني بصوتها الشبيه بمواء القطط والجمهور يصفق ويرقص.
يقول محمود عبد الباقي لنفسه:- سأكتب تاريخ الاحتفال بأطول شارب،يا للمهزلة!
صوت مواء المطربة يختلط بأصوات إطلاق الرصاص القادمة من بعيد
-أما الآن، فمع نتائج المسابقة.
فاز بالجائزة المدعو محمود عبد الباقي، تفضل يا سيد محمود إلى المنصة لتستلم جائزتك
ينظر باستغراب، وقد فغر فاه،لا يتحرك من مكانه((أخيرا صرت جزءا من اللعبة))

- تعال

يقترب منه عريف الحفل، يشده إلى المنصة، يصفق الجمهور، يسلمونه الجائزة،تقترب منه آلات التصوير،يقترب منه الصحفيون،يحاصرونه.

- ما شعورك وأنت تفوز بالجائزة؟
- ما هي الوسائل التي استخدمتها لتطويل شاربك؟

- ماذا تتمنى في هذه المناسبة؟

وسط دهشة الصحفيين صاح وقد ارتجف من الغيظ:عندي أمنية واحدة فقط...أعطوني مقصا...

أريد مقصا...مقصا...

1986/4/25

المغفل

جلس على كرسي في الصف الأخير من قاعة المحكمة،سأل الرجل الذي يجلس بجانبه:أين القاضي؟
أجابه:- إنه الذي يجلس على كرسي وراء المنصة،ويضع نظارات على عينيه.
نظر إلى المنصة،تساءل في نفسه: ((وتضع نظارات أيضا؟))
تطلع ثانية: ((هل من المعقول أن يتغير لهذه الدرجة؟))
التفت إلى جاره:- هل هذا هو القاضي حقا؟
- نعم،وأرجوك أن تسكت،ألا ترى أن القاضي يتحدث وأنا أسمعه.

سكت شعبان،حدث نفسه((هل يمكن أن يكون هذا الصوت الرزين هو صوته؟))
رفع القاضي يده،خبط على المنضدة برفق،أمر الناس بالهدوء.
التفت شعبان إلى جاره:انظر كيف يخبط على المنضدة بلطف !
أجابه:- اسكت،هل تريد أن تودينا في ستين داهية؟!

أكمل شعبان بصوت خافت لنفسه((حين كان عندي،كان يخبط الأرض بعنف،وكان الجيران ينزعجون من صوته الجهوري))
نقل القاضي نظراته بين الناس،قال شعبان في نفسه((لقد التقى نظره بنظري،فأشاح عني متجاهلا،ترى هل نسيني؟!))
تحدث القاضي عن العدل واحترام القانون،قال شعبان لنفسه((وتتحدث عن العدل والقانون،ولك لسان وتتكلم،والله زمان!))
ابتسم القاضي،قال شعبان((ويبتسم أيضا،لا أعرفه إلا مكشرا،يا رب!إن هذا لا يشبهه أبدا،أين أذناه الطويلتان؟!لابد أنه ماهر في إخفائهما!))
قام القاضي عن كرسيه،تعثر،قال شعبان لنفسه((إنه هو بذاته، كان كلما مشى قليلا تعثر،لقد عرفته،سأتحدث إليه،وأوصيه بالناس المساكين من أمثالي كي يساعدهم))
تقدم شعبان باتجاه القاضي،أمسكه من كتفه،وصاح:أهلا بك يا صديقي،ألم تعرفني؟!أنا صاحبك.
نظر القاضي إليه باستغراب:- من أنت؟!

شـعبان: أتتجـاهلني لأنـك أصـبحت قاضـيا!كم حملتـك الأثقـال،وكم رعيتك،وأطعمتـك البرسـيم،وكم لـي مـن أفضال عليك،صحبتنا صحبة عمر.
تطلـع إليـه القاضـي:ماذا تقول أيهـا الأبلـه؟!أنا القاضـي تحدثني هكذا!
قال شعبان:- يـا حيف علـى تعبي معك،وتتظـاهر بأنك لا تعرفنـي! صـحيح أننـي كنـت أضـربك ولكـن مـن غلبي.
القاضي:ماذا تقول أيها المجنون؟!
شعبان:ماذا أقول؟! وكأنك لا تفهم ،أنـت حمـاري حتـى لو لبست ثوب القاضي وحكمت بين الناس
تطاير الشرر من عيني القاضي،صاح:أمسكوه،اقبضوا عليه،اجلدوه،ثم أحضروه إلي.
حين أحضروا شعبان إلـى القاضـي،كان جسمه مزرقا داميا من الضرب.
قال القاضي:- ماذا كنت تقول أيها الأبله؟!
شـعبان:- لم..لـم أقل شـيئا يـا جنـاب القاضـي،أنا فـلاح درويش لا أفهم ما أقول.
القاضـي:- أعـد حـديثك علـى مسـامعي وإلا أمـرتهم أن يجلدوك ثانية.
شعبان:- إنه ليس ذنبي يا جناب القاضي،إنه ذنب ذلك الرجل،هو الذي ورطني،كان عندي حمـار أحمـل عليـه

الخضار،وأنقلها من قريتي القريبة إلى هذه البلدة،وقد أضعت حماري في السوق بسبب الزحام،وحين بحثت عنه ولم أجده،سألت الناس، فقال لي أحدهم: ((حمارك صار قاضيا للبلدة))

القاضي:- أيها الأحمق!كيف صدقت هذا؟!

شعبان:- أنا لم أصدق،لكنه قال لي: ((ألا تؤمن بالمعجزات وبقدرة الله،إن الله الذي خلقك ويميتك،ثم يحييك،قادر على أن يجعل من حمارك قاضيا،أتنكر قدرة الله؟!هذه نهاية الدنيا،وكل شيء جائز،فصدقته،فأنا إنسان مؤمن أخاف الله.

عندها انفجر القاضي بالضحك،وارتفعت قهقهاته،بينما شعبان يحدق فيه مشدوها،ويهمس:إنه على كل شيء قدير!

1985/4/9

انتقام الجثث

-1-

قالـت لـه العرافـة: أرى فـي فنجانـك كرسـيا مـذهبا ستجلس عليه، وأرى حول الكرسي بركا من الدماء، وجثثا كثيرة، ستصل إلى الأعلى وتتربع في السماء على أشلاء الناس.

كان صغيرا حين قالت له العرافة هذا الكلام، ولربما أثر كلام العرافة فيه، فظل زمنا طويلا يحلم بالكرسي المذهب يلمع أمامه ويقود خطواته، كبر على هذا الحلم، فكر كثيرا، كيف يحقق حلمه هذا؟ العرافة قالت له إنه سيصعد إلى الكرسي المذهب على أشلاء الجثث، سيصنع سلما من الجثث ويرتقي هذا السلم إلى كرسيه الجميل، كرسيه الحلم.

دار الزمن دورته، وابتدأ جابر يفكر في تحقيق حلمه، انتقل من التفكير إلى التنفيذ، خرج إلى الجبال المحيطة بمدينته، بحث عن مغارة كبيرة، اصطفاها لنفسه، وبدأ رحلته الشاقة إلى الكرسي المذهب.

-2 -

تكاثر عدد المفقودين في المدينة، كانت الصحف تنشر يوميا هذه الأخبار: ((فلان خرج من منزله ولم يعد))..((فلانة خرجت من منزلها ولم تعد))..
ضج الناس ، صاروا يتساءلون : أين يختفي هؤلاء؟
صار كل واحد منهم يخشى على نفسه، الأم تخاف على أولادها، الزوجة تخاف على زوجها، واستمرت الأخبار تنشر عن المفقودين.

-3-

ما من أحد يعرف سر جابر، لو عرفوا سره لسموه كاسرا، يخرج كل يوم متلصصا، ملثما، يقتنص الناس، يقتلهم ويضع جثثهم في المغارة. لا يمكن لأحد أن يتصور أن جابرا يقتل هؤلاء الناس، فهو إنسان طيب المظهر، ودود، يزور الأصدقاء، يعمل نهارا، ويرتكب جرائمه ليلا، وظل السر الرهيب قابعا في صدره، وظلت أعداد المفقودين تتزايد.

-4-

ذات يوم خرج جابر من منزله ولم يعد، فتشت زوجته عنه فلم تجده، قالت لنفسها: لقد اختفى
كبقية الذين يخرجون من منازلهم، ولا يعودون، ولبست عليه الحداد.

-5-

مضى زمن...وذات يوم كان أحد الصيادين يطارد بعض الطيور لصيدها، فوجد مغارة كبيرة، دخلها، فرأى جثة رجل مهشم الجسم إلى جانب بقايا جثث قديمة، كان هذا الرجل هو جابر

-6-

لم يفهم الصياد كيف أتت هذه الجثث إلى المغارة، ولم يفهم كيف مات جابر، أما العرافة التي تنبأت لجابر بالصعود إلى السماء على أشلاء الجثث، فقد عرفت كيف مات جابر، قالت لنفسها: ((لقد صنع سلما من الجثث كي يصعد عليه إلى السماء، وحين أراد أن يجرب الصعود على هذا السلم، سقط وتهشمت أضلاعه، لقد انتقمت الجثث لنفسها)).

ضحكت العرافة ضحكتها المريرة، ونظرت إلى الأفق البعيد.

1985/4/10

المواجهة

منذ أيام والأرق يمسك بتلابيبي،أنا التي كنت أنام كثيرا حتى عد النوم من هواياتي،أحاول أن أغفو فلا أستطيع،ويا ليت الأمر توقف عند الأرق،فالأفكار السوداء لا تنفك تغزو مخيلتي،حتى أنني أصبحت أشعر بالرعب كلما أويت إلى فراشي،أفكار مجنونة تراود ذهني.

أفكر بإلقاء نفسي من شرفة منزلي في الطابق الخامس إلى الرصيف البارد،يتبلور المشهد في مخيلتي،أتصور نفسي وقد أصبحت على الرصيف،اصطدم رأسي بحجارة الشارع،وابتدأ الدم ينزف منه،ينزف،وينزف حتى لم يبق دم في رأسي،عندئذ توقفت الأفكار السوداء عن إزعاجي،أتصور نفسي قد فتحت باب الشرفة،ومددت لساني لليل المظلم،أمشي في الشوارع،وأنطح برأسي كل جدار أراه..أيام تمر وأنا في هذه الحالة الغريبة.

هل جننت؟ربما! ليس هناك ما هو غريب في الأمر..أشعر بالإرهاق،بالقرف من كل شيء،أريد الخروج من جلدي،كل شيء عبث في عبث،قلت في نفسي:لعلها إحدى نوبات الإحساس التي تطل علي بين حين وآخر،إحدى لحظات المجابهة مع نفسي،الأوهام التي أخدع نفسي بها تحاصرني،تحاول

خنقي،الأكاذيب التي تحيط بي تتحول إلى سياط تلهب جلدي،وفي لحظة أشعر أن العالم كله من حولي ليس سوى مهزلة تتكرر كل يوم.
الأفكار السوداء تتزايد،والحصار يمتد حولي،يحاول أن يخنقني،هدوئي المعتاد..لا أدري كيف تحول إلى شراسة!
قالوا:- أنت تحملين السلم بالعرض..
- وهل تريدونني أن أحمله بالطول؟!
دنيا لعينة ! أبصق عليها،وعلى هذه الحياة الكئيبة..حتى جلدي صار يزعجني،صار سجنا،أحس أنني أريد أن أخرج من جلدي،أريد أن أمزقه،أريد أن أفتت عظامي،ثم أنظر إلى بقايا الفتات،وأقهقه بصوت عال..من أين تأتيني هذه الأفكار الجهنمية؟!
شيء ما في هذا العالم غير منطقي..غير معقول..أحاول كثيرا أن أحيل العالم إلى معادلات رياضية،أحاول كثيرا أن أفلسف الأمور،وأعقلنها كي لا أجن..لقبني بعضهم بالمتفلسفة،والفيلسوفة سخرية مني ومن((فذلكتي))..في لحظات صدق مع نفسي كنت أكتشف أن كل فلسفاتي،وكل منطقي البارد الرزين لا يفسر غرائب العالم من حولي.

قال لي أحد الأصدقاء:- أنت تحاولين بمنطقك البارد وعقلانيتك الهادئة الهروب من مجابهة نفسك ومجابهة العالم
أجبته:أنت مخطئ،فأنا أجابه العالم،وأتعامل معه بالعقل،أنا أتحكم بالأمور كي لا تفلت من يدي
ضحك الصديق،قال:أخشى عليك من نتائج هذا العقل،سيأتي يوم تشعرين فيه بالإرهاق لكثرة ما تفكرين،وعندئذ لست اضمن النتائج

- وماذا سيحصل؟
- ماذا يحصل؟! ستفلت كل الخيوط من يدك،ولا يعود بإمكانك التحكم بزمام الأمور،وعندئذ أرينا مواهبك يا صاحبة العقل الراجح.

يومئذ ضحكت مما سميته أوهام الأصدقاء ومزاجهم،أتصور صديقي هذا ينظر إلي بشماتة،ويقول لي:لقد تنبأت لك بذلك.
وصلت إلى حافة الانتحار،أنا التي كنت أقول إن الانتحار هروب جبان من مواجهة الحياة.
في لحظة ما شعرت أن الانتحار مجابهة شجاعة،مجابهة مرعبة للموت الذي نهرب منه،ولكنه يلاحقنا،يقبض على أنسجتنا،ويغتالها ببطء.... ببطء هادئ وبارد،كعقلي ومنطقي البارد.

قال لي مرة:- أنت يا ربة العقل والمنطق،فسري لنا الحروب،فسري لنا لماذا يرمي الإنسان بنفسه إلى المخاطر والموت،فسري لنا الشرور في هذا العالم،والحماقات التي تمنعنا من الحياة كبشر.
يومها قلت له:كل شيء قابل للتفسير،إن لم أستطع أنا ،فهناك غيري
ضحك الصديق،قال لي:وهل منطقك،ومنطق غيرك من أصحاب العقل والتدبير سيلغي الشر من العالم؟ هل يلغي الحزن والموت؟الشر باق ما بقي الإنسان على وجه الأرض،والحزن يرافقنا منذ صرخة الولادة الأولى حتى نتوسد الثرى.
أجبته:- أنت متشائم،الحياة فيها الخير والشر،الحزن والفرح،الضباب والوضوح،لماذا تصبغ العالم بالسواد؟!
قاطعني: أرجوك لا تكرري هذه الأسطوانة،مللتها..ستحدثينني عن التفاؤل،صدقيني..الشر يتغلب دائما على الخير،اقرأي تاريخ البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض،وستتأكدين من صدق كلامي.
قلت له:كيف ستعرف قيمة الخير إذا لم يكن الشر موجودا؟يبقى الإنسان يحلم بالخير
- إذن احلمي كما تريدين!

- سأحلم،فالعالم مليء بالأشجار، والأغاني، والغابات الجميلة،واللحظات الحلوة

قال: - تذكريني حين تمرين بلحظة يصبح فيها كل شيء بلا معنى...ما قيمة الأشجار والأغاني أمام جثة طفل بريء دمرته الحروب؟! ما قيمة اللحظات الحلوة أمام تاريخ طويل من التعاسة تمر به البشرية؟!تذكريني يا صديقتي حين تمرين بلحظة تشعرين فيها بأن لا شيء في العالم يعزيك

أتذكرك الآن،أتصورك تقف أمامي وقد أشعلت سيجارتك،تنفث منها الدخان،وتنظر إلي بشماتة،وتقول:اذهبي إلى موسيقاك،وكتبك،وأشجارك،ودعيها تنتزع القلق والأرق من رأسك العنيد هذا...يزداد الجنون في رأسي،أريد أن أرمي نفسي من الشرفة،أتجول في الشوارع الفارغة،أصرخ،أرفع يدي إلى الأعلى والأسفل،أغني بصوت عال،ألتقط نبض الحياة من الشوارع المظلمة..يزداد الجنون في رأسي،ليست المرة الأولى التي أجن فيها هكذا،نوبات جنوني كثيرة،بعد كل نوبة أعود عاقلة كبقية الناس،هاربة كبقية الناس،أضع أقنعتي الكتيمة،أتسلح بفلسفتي الهادئة،وابتسامتي المريرة،وبرود أعصابي المعهود

1985/2/16

حدث ذات يوم

ا-التمرد

هلعا ومضطربا اقترب من الملك،همس في أذنه، باستغراب قال الملك:-ماذا تقول؟

الوزير:النساء يحاصرن القصر يا مولاي، يطالبن بالحرية والمساواة مع الرجل

الملك: النساء يحاصرن القصر! لم يبق إلا هذا! حتى النساء يطالبن بحقوقهن! يبدو أنني لست حازما في حكمي حتى تتجرأ النساء وتحاصرن قصري.

الوزير:تصور يا مولاي أنهن تحملن اللافتات وترددن الشعارات، وتعقدن المؤتمرات علنا دون خوف من أحد، وتتسلحن بسكاكين المطبخ،وترددن((سكاكين المطبخ رمز العبودية سنجرح بها كل من يقف ضدنا))

الأمور خطيرة يا مولاي تستوجب حلا عاجلا.

الملك:سنعقد مجلس مستشاري المملكة كي نبت في الأمر.

2

2-في مجلس المستشارين

الملك:أيها المستشارون!نساء المملكة يثرن الشغب والفوضى،ماذا تقترحون علي لحل المشكلة؟
المستشار الأول:أقترح إعدام مثيرات الشغب
الملك:ومن أين سنأتي بنساء للمملكة؟ من سينجب الأولاد ويربيهم؟من سيطبخ لنا ويخدمنا؟
المستشار الثاني:أقترح سجنهن فترة من الزمن لتأديبهن
الملك:هذا صعب، فالسجون مكتظة بالسجناء، وبناء سجون جديدة يكلفنا مبالغ طائلة
المستشار الثالث:أقترح أن نسجن فقط أكثرهن شغبا وتحريضا على الفتنة، وستخاف باقي النساء وتلزمن بيوتهن
الملك:إذا سجناهن ارتفعت قيمتهن في نظر باقي النساء واعتبرنهن بطلات وفدائيات وصار تأثيرهن أكبر، ولكن! يا رئيس المستشارين لماذا لم تعطنا رأيك؟
رئيس المستشارين: نحن يا مولاي أناس متحضرون،واعتدنا أن نعامل النساء بلباقة وكياسة،لذلك أقترح حلا سليما للمشكلة
الملك:حسنا! كلنا آذان صاغية

رئـيس المستشـارين:ندعو المحرضـات علـى الفتنـة ونتفاوض معهن،ونقلدهن بعض المناصب في البلاط الملكي،عندئذ سيسكتن ويتعالين على بقية النساء، أما باقي النساء فالدعاية كافية لإنهاء ثورتهن.

الملك:وضح قصدك

رئيس المستشارين:ننشر دعايات بأن المرأة المثالية هي المرأة المسالمة والمطيعة والمحبة لزوجها،ونلهي النساء بأجمل الأزياء وتسريحات الشعر المبتكرة وأدوات الزينة،وآخر الوصفات عن الطبخ،والأساليب الحديثة للعناية بالأطفال،وأخبار الفنانين والفنانات، وكل ما ذكرت نضعه تحت لافتة المرأة الحديثة،والمرأة المتحررة،وأراهنك يا مولاي أن اللعبة ستنطلي عليهن،وأنهن سيفرحن بالحرية والمساواة الموهومة

صفق الملك بيديه فرحا،وصاح بصوت عال: والله أنت عبقري! ما خاب من جعلك رئيسا للمستشارين

3- نتائج باهرة

كثرت المجلات والكتب التي تهتم بالطبخ،وتربية الأطفال،وأخبار المجتمع ،والفنانين والفنانات،وربحت دور النشر كثيرا،وتكاثرت دور الأزياء،وصالونات التجميل،والمتاجر الخاصة بأدوات الزينة، والأحذية النسائية،وربح التجار كثيرا.

النساء اللواتي حصلن على مناصب في البلاط الملكي،أمسكن بالمراوح الجميلة، وارتدين الملابس الفخمة،وجلسن في البلاط كالتماثيل ،يتشدقن بالحرية والمساواة،ويوزعن الابتسامات على رجال البلاط،ويصرفن كل رواتبهن على آخر الأزياء والتسريحات.

أما معظم النساء فقد نسين تمردهن القديم،وعدن إلى أساليب أمهاتهن وجداتهن في التظاهر بالضعف والبكاء للوصول إلى أهدافهن،عدن إلى المكر والخداع للحصول على أبسط حقوقهن،وحين كن يجتمعن كانت أحاديثهن تدور حول حرية المرأة ومساواتها بالرجل،وكانت فناجين القهوة تدور والأحاديث تتكرر.

توقفت النساء عن الاحتجاج،وحصل رئيس المستشارين على مكافأة كبيرة تقديرا له على خدماته الجليلة.

1985/1/27

المبتسم

امتـدت الشـوارع أمـام شـاكر عبـد المعطي،التفـت الشـوارع حـول شـاكر عبـد المعطي،رفـع رأسـه عاليا،وابتسم بلا مبالاة،ومضى في طريقه بهدوء.

وصـل المنزل،تحلقـت الحجـرة حوله،سـورته الجدران،حاصـرته،فتح المذياع،اسـتمع إلـى الأخبار،وبعض الأغاني،وطبع ابتسامته البلهاء على وجهـه المتعب.اتسـعت الابتسامة،تصاعدت،صـارت قهقهة تتردد في جنبات غرفته.

في غرفة الجلوس،هزت أمه رأسها بحسرة،تمتمت: ((كم يتعبني هذا الولد؟لا أراه إلا باسما أو ضاحكا أو مقهقها،أو محدثا نفسه،ماذا أفعل يا ربي؟))

تمشـى شـاكر فـي غرفتـه جيئـة وذهابـا،نظر فـي المـرآة،رأى وجهـا نحيلا،وعينـين غـائمتين،تطلع إلـى جـدران غرفته،صـافحته لوحـات بقلـم الفحـم لـرأس مقطوع،وقطـة مشنوقة،صـورة فوتوغرافيـة لطفـل ضاحك،((هذا أنا حين كنت صغيرا وسعيدا،هل يصبح الناس كهولا في الحادية والعشرين؟!))

نظـر إلـى وجهـه العـابس فـي المـرآة،فتش عبثـا عـن ملامـح الطفـل الـذي فـي الصـورة فلـم يجدها،ابتسـم بطريقتـه الغريبـة،فتح الباب،وابتدأ رحلتـه اليوميـة فـي شـوارع المدينة،اشـترى قلـيلا مـن بـزر عبـاد

الشمس،وجلس على أحد المقاعد في الحديقة العامة،يتأمل الأشجار والأزهار حوله،ويبتسم،خرج من الباب الرئيسي للحديقة،وجد جمهورا من الناس عند نهاية الشارع،انضم إليهم

- ماذا حدث؟

أجابه أحدهم بإشفاق:- اصطدمت سيارتان،أصيب سائق السيارة ببعض الرضوض،أما الثاني فحالته خطرة،وقد نقل إلى المستشفى

هز رأسه،وطبع ابتسامته المعتادة على وجهه،وأكمل طريقه.عادت إلى ذاكرته صورته حين كان طفلا صغيرا وسعيدا،وكانت ضحكاته الفرحة تتردد في أنحاء المنزل((رحم الله تلك الأيام))

سمع صوت أمه تقول له: ((يا بني!ما هذا العبوس المخيف في وجهك؟اضحك،تضحك لك الدنيا،صحيح أن الحياة قاسية لا ترحم،لكنك رجل،والرجال لا يهاب الصعاب))

((ما هذه الابتسامة الغريبة يا بني؟! ماذا حصل لك؟))

وصل إلى مفرق طرق أمام شارة المرور،توقفت سيارة صغيرة،نزل منها ثلاثة رجال،أمسكوه،أدخلوه إلى السيارة عنوة،عصبوا عينيه،وانطلقوا به سريعا،أخرجوه من السيارة،ساروا به،أجلسوه على الكرسي،نزعوا العصابة عن عينيه،حين استعاد قدرته

على الرؤية،وجد نفسه في الصف الأول من مدرج كبير،وأمامه ثلاثة رجال يجلسون حول منصة.
سأله الرجل الأول:- هل أنت المدعو شاكر عبد المعطي؟

- نعم
- في يوم 1982/12/11 كنت تمشي في شارع فيصل وأنت تقهقه وتلوح بيديك،اشرح لنا أسباب ذلك
- أنا كنت أقهقه في الشارع!غير معقول فأنا مشهور بعبوسي
- لا تنكر،أيضا في يوم 1983/2/12 كنت تتلفت حولك في شارع اسكندرون تتفرج على الدكاكين وتبتسم.
- أنا كنت أبتسم؟!
- نعم أنت
- لا أذكر ذلك
- حسنا أذكرك،في يوم 1983/5/14 كنت في قاعة المحاضرات في الجامعة،وكان الدكتور منهمكا في شرح المحاضرة،وفجأة دوت قهقهة غريبة صادرة عنك،فطردك الدكتور من القاعة
- لا أذكر ذلك

- إذن في يوم 1983/7/6 دخلت إلى الحمام،وفجأة انبعثت ضحكاتك الجنونية حتى إن أمك خشيت أن يكون قد أصابك مس،فاستنجدت بالجيران
- أنا فعلت ذلك؟!
- وأكثر من ذلك،في يوم 1983/8/15 كنت في دورة المياه،وأصابتك نوبة ضحك هستيري،ثم ابتدأت تغني وتبكي
- أنا!
- نعم أنت
- ولكن من أين تعرفون كل ذلك عني؟!
- هذا ليس من اختصاصك،أجب فقط عن أسئلتنا،وهيئة المحكمة الموقرة ستنظر في أمرك،وأنا بصفتي المسئول عن التقاليد والأعراف أطالبك بتفسير وضعك قبل إصدار الحكم.

التفت الرجل الأول إلى زميله وأشار إليه بأن يتكلم.

قال الرجل الثاني:يا بني،نحن نريد مصلحتك،أنت وضعك غير طبيعي،تضحك دائما،والغريب أن ضحكاتك لا تأتي في وقتها المناسب،ففي الوقت الذي يبكي فيه غيرك،تضحك أنت،ونحن هنا نريد فهم شخصيتك كي نستطيع علاجك،لأنك مريض.

قاطعه الرجل الثالث:يا بني،أريد أن أسألك هل أنت مدرك لتصرفاتك؟أم أنك غير واع لما تفعل؟!

- أنا أدرك تصرفاتي
- إذن ! اشرح لنا لماذا تبتسم وتقهقه،أزح الأقنعة عن وجهك،واعتبرني صديقك المخلص،هيا يا بني،إنني أصغي إليك برحابة صدر.

تدخل الرجل الأول:- أسرع في الجواب،كل تأخر يفسر ضدك.

- وهل أنا مجرم؟!
- نحن الذين نسأل،وأنت عليك الإجابة فقط.

التفت الرجل الثالث إلى الرجل الأول:

- لا تتحدث معه بهذه الطريقة،أنت تخيفه.

نظر إلى شاكر عبد المعطي – هيا يا بني،استرخ وحدثني عن همومك وأحزانك،افتح لي قلبك،هيا..

تغلغل الصوت الدافئ إلى قلب شاكر عبد المعطي،انبعث نور أزرق مخضر من زوايا القاعة،هدأت أعصابه المتوترة،نظر إلى الرجال الثلاثة أمامه،الرجال الثلاثة تكاثروا،ملئوا القاعة،هاجمته الأخبار والأحزان،هاجمته الكوارث،أحس أن غشاوة قد زالت عن عينيه،أنه يرى جيدا،يرى كثيرا،كثيرا جدا.

انهمـــرت الـــدموع مـــن عينيه،صـــارت نهـــرا واسعا،صـــارت بحرا،ارتفـع نشيجه،اسـتغرق فـي البكاء حتى أيقظه صوت العصا يطرق بهـا الرجل الثالـث علـى المنضـدة.رفع رأسـه،لم يجـد قاعـة المحكمة،وجـد نفسـه فـي سـاحة سـعد الله الجـابري عنـد مفتـرق الطرق،ينتظـر الضـوء الأخضـر كـي يعبـر إلـى الطـرف الآخر،والـدموع تنهمـر مـن عينيه،والناس ينظرون إليه بفضول واستغراب.

1984/8/5

سيرة الصراصير

ا- الغزو

قطط هزيلة تفتش في القمامة عما تأكل،أناس نائمون بعضهم حالمون،وبعضهم تفترسهم الكوابيس المزعجة،شقوق الأبواب صغيرة جدا،لكن الصراصير ماكرة تتسرب من أصغر شق.تبدأ رحلة بحثها اليومي،إنها تحلم بالصابون غذاؤها المفضل،تجوب المدن بحثا عنه،وما إن تجد مدينة غير مسورة حتى يمتلئ صدرها أحلاما،وتغزو المدينة آملة بالغذاء الوفير.

لم يحدث في تاريخ المدينة أن اختفى الصابون،كانت تختفي بعض السلع أحيانا كي تباع بعد ذلك بأسعار مرتفعة أثناء الحروب،لكن الصابون لم يختف يوما كما حدث في ذلك الوقت.

ضجة كبيرة في المدينة،ندوات واجتماعات،ذعر وهلع،فالصراصير صارت قططا سمينة،وما تزال تكبر وتكبر،رئيس البلدية متوتر وخائف،ماذا يفعل إزاء الصراصير؟!إنها تنمو بسرعة،تتكاثر بسرعة،ماذا يفعل؟!

وضع يده على خده مفكرا،حك رأسه،مسد شاربه،استدعى موظفيه:

- كيف سمحتم للصراصير بالتكاثر هكذا؟كيف؟كم نبهتكم أن تحرقوا القمامة خارج المدينة؟!لماذا تركتموها تتراكم؟أغربوا عن وجهي،لا أريد أن يبقى صرصور في المدينة،الصابون مفقود،كلما صنعنا كميات كبيرة منه استهلكتها الصراصير،سأعطي مكافأة كبيرة لكل من يقتل أكبر عدد من الصراصير.

صارت الصراصير تتمشى بين الناس علنا،وكأنها من سكان المدينة،ومن يدري؟!ربما يأتي يوم تزيح فيه السكان الأصليين وتحتل المدينة تماما.

في المقهى

هذه المدينة معروفة بكثرة المقاهي،وكثرة الكسالى يجلسون في المقاهي،لا يملون من شرب الشاي والقهوة،الثرثرة ملحهم اليومي،يراقبون الرائحين والغادين،يكررون أحاديثهم ولا يملون،وفي الليل تستقبلهم الخمارات ،وما إن يدب السكر فيهم حتى يتصوروا أنفسهم يقومون بجلائل الأعمال،أحدهم يصبح بطلا يقهر الأعداء،والآخر يصبح سلطان زمانه،وحين يأتي الصباح يذهبون إلى وظائفهم كي

يشربوا الشاي والقهوة/ويثرثرون ويؤجلون أعمال الآخرين ومصالحهم.

شعر كسالى المدينة بالملل لكثرة ما كرروا من الأحاديث،وجاءت هذه الصراصير لتقدم لهم موضوعا جديدا،وأحاديث مسلية.

في المقهى اجتمعت عصابة من الكسالى حول إحدى الطاولات،قال أحدهم مشيرا إلى صرصور يتمشى بين الطاولات

- أرأيتم هذا الصرصور اللعين كيف ينظر إلي بعينيه الخبيثتين؟!انظروا كيف يحك قدميه ويرقصهما
- أجابه صديقه:لقد أصبح كرشه مثل قربة مملوءة بالماء،تكاثرت الأمراض بين الناس بسبب هذه الصراصير.

صاح أحد الجالسين على الطاولة:

- هل سمعتم بالمكافأة التي وضعها رئيس البلدية لمن يقتل أكبر عدد من الصراصير؟!إنني أشعر بالملل،وسأتسلى بقتل الصراصير،رزق أرسله الله إلي،اللهم أكثر من عدد هذه الصراصير،فالمكافأة تستحق أن نسعى من أجلها.

جلال البصير

قارض الورق رغم عزلته سمع بقصة الصراصير،قارض الورق يكاد يصبح أثرا من آثار المدينة،فقد قارب الثمانين من عمره،أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه كان منعزلا عن الناس،يجلس في مكتبة منزله ويقرأ،تبحر في كل العلوم القديمة والحديثة،قرأ التاريخ،والأديان،والفلسفة واللغات.

فجأة خرج قارض الورق من منزله،وبدأ يتجول في الشوارع بين الناس،يقول لهم إن المدينة في خطر،فيضحكون ويتهاونون كعادتهم،كان يردد ما سموه هلوسات،يقول إنه قرأ في كتبه عن نبوءة بقدوم صراصير ذات أشكال مختلفة إلى المدينة،وأن هذه الصراصير ستأكل الصابون،وستأكل كل طفل ذي وشم أخضر على جبينه.

قالوا له:لم نر أبدا طفلا ذا وشم أخضر على جبينه

أجابهم:- لم يولد حتى الآن طفل بوشم أخضر لكنه سيولد،وستأكله الصراصير إذا لم نقض عليها.

قهقهوا كعادتهم؟كل واحد رمى حل المشكلة على الآخر

قالوا له:ولماذا تحمل السلم بالعرض؟!هذه القصة من اختصاص رئيس البلدية،ونحن تعودنا على الصراصير،وتعايشنا معها،وستمل وتترك المدينة،ونعود كما كنا،أنت متشائم،أنت شيخ خرف على حافة قبرك،وهذه هلوسات إنسان يحتضر.

3- التكاثر

ظلموا جلال البصير،اتهموه بالهلوسة،وجاءت الأحداث مؤيدة أقواله،لقد كان صادقا،أما هم فكانوا كاذبين.دهش كسالى المدينة،فقد ولد لأحدهم طفل ذو وشم أخضر،وأكلته الصراصير،وتكررت القصة مع آخرين،يبدو أن الصراصير لن تكتفي بأكل الصابون،بل ستأكل أطفالهم،الصابون استبدلوا به التراب والماء،ولكن كيف يستغنون عن فلذات أكبادهم؟1

اقتنعوا أن المشكلة خطيرة،فالصراصير كانت تتكاثر بسرعة عجيبة،وتسمن،وتكبر،وتزداد شراهة،ولكن ماذا يفعلون؟!

جلال البصير يحمل طاسة نحاسية يقرع عليها ليلا ونهارا ويقول:

- يا نيام استيقظوا...يا كسالى لا تستسلموا.. يتجول في أنحاء المدينة لا يكل ولا يتعب.

يقولون إن جلال البصير يصارع القدر والإرادة الإلهية،فالله هو الذي أرسل الصراصير،وبرحمة من عنده يبيدها أو يردها عن المدينة.

كسالى المدينة ما زالوا يجلسون في المقهى كعادتهم يتسلون بالثرثرة،وشرب الشاي والقهوة،وما زالت الصراصير تسرح وتمرح.

1983/11/24

الذباب

ما زال الذباب يطير حولي،يروح ويجيء،أطرده،يعود ثانيـة،يتكاثر علـى يدي،ورجلي،ووجهي،أنسـى كـل شيء في العالم،يبقى همي أن أطارد الذباب.

لـدي كثيـر مـن الأعمـال أود إنجازهـا،لكن الـذباب يمنعني،سنة كاملة في هذه الشركة وأنا أحاول إنجاز الأعمال المتراكمة فأفشل بسبب الذباب.منذ جئت إلى الشـركة والـذباب يأكـل مـن جلـدي،يمتص صـحتي وأعصـابي،الأعمال تتراكم،وأنـا أعـارك الـذباب أدخـل فـي معـارك غيـر متكافئـة معـه،أجمع جيـوش نفسـي وأعصـابي،أجند إرادتي،فأفشـل،أحاول تجاهـل الذباب،أفشل.

أحضـرت مروحـة كـي أطـرد بهـا الـذباب،فكنت حـين أطرده عن وجهي،يلسع يدي وقدمي،وحين أطرده عن يـدي،يعود إلـى وجهـي،أرى الجميـع حـولي يتضاحكون،أسـمعهم يتنـاقلون سـيرة معـاركي مـع الذباب،تتزايـد الإشـاعات وتتكـاثر مـع تزايـد الـذباب،يتبلونها بالبهـارات والمقبلات،وبكـل الصـور البيانية التي يزخر بها خيالهم،حتى ابتعدت كثيرا عن الحقيقة.

أحضرت قتالة للذباب،فكنت كلما قتلت ذبابة ولدت أثناء موتها عشر ذبابات،وجاء إلى جنازتها أكثر من ألف ذبابة.
لماذا لم يكن لي عيني زرقاء اليمامة لأستشرف مستقبلي؟!لأعرف أن أجمل أيام حياتي التي ضيعتها وأنا أحلم وأتمنى ستكون نهايتها مصارعة الذباب.
أدير إبرة المذياع،أستشرف آفاق العالم حولي،أسمع المذيع يقول:

- القوات السورية تساعد لبنان في طرد إسرائيل من أراضيها،الدول العربية صامتة تجاه ما يحدث،ولبنان صامد

يتكاثر الذباب حولي،يمزق ثيابي،يدخل في مسامات جلدي،أرتدي رداء واقيا من الذباب،يفتته الذباب،يدخل إلى عظامي،يقف على رموشي،يتسلل بين خصلات شعري،يتساقط شعري،تتساقط رموشي،والذباب يتكاثر ويتكاثر،يغطي سماء الشركة،وصوت المذيع:

- ما زالت بيروت الوطنية تصمد ضد إسرائيل وتقاوم الحصار

الناس يحتفلون بقدوم الذباب،أصبح جزءا من طعامهم،جزءا من الهواء الذي يتنفسون،غريب حقا هذا النوع من الذباب،لا أراه إلا حيث توجد الإشاعات والكسل،والأحاديث التافهة المملة.

بعضهم يتعايشون مع الذباب كصديق أليف،يفرشون له الغرف ويجهزون الستائر لاستقباله،وأنا المجنونة الحمقاء أطارد ضيفهم المفضل،ضيفهم المحبوب.
سألت أحدهم:
- ما هي الموسيقى التي تحبها؟
أجابني:- الموسيقى التي يصدرها الذباب حين يطير
سألت آخر عن اللون الذي يحبه:
أجابني:- لون أجنحة الذباب
وآخر عن الممثلة التي يفضلها:
أجابني:- إنها الذبابة الزرقاء ذات الأجنحة الطويلة.
وسألت إحداهن عن هواياتها:
أجابتني:- إنها تحب الذباب ولديها كل يوم استقبال خاص له.
بعضهم يكرهون الذباب مثلي ويصارعونه،وبعضهم يدعون بأنهم يكرهون الذباب،وأراه يعايشهم،فهل أكذب عيني؟
نصحني أحدهم أن أتأقلم مع هذا الجو،قال لي:
- الذباب ملح الحياة
ولكن دون جدوى،حاولوا إقناعي بالتخلي عن عنادي،قالوا لي:

- الـذي يعـيش بـين العميـان يجـب أن يكـون أعمى...أنـت تنحتـين فـي الصخر،سـنراك بعـد زمن،وسنرى كيف ستحبين الذباب أكثر منا

قالوا لي:

- أنـت مثاليـة جـدا،على الإنسـان أن يتـأقلم مـع الواقع،ســتتعبين كثيــرا قبــل أن تتفهمــي واقعك،العالم غابة من الوحوش،وعلى الإنسان أن يكـون ذئبـا بـدل أن يكـون نعجـة،ألم تـدركي بعد هذه الحقيقة؟!

لمـاذا لا يكـون الإنسـان إنسـانا؟لماذا يكـون ذئبا؟ولمـاذا يكون نعجة؟لماذا؟لماذا؟

تمتد الأشجار في باحة الشركة،تتكاثر الورود وممنـوع الاقتــراب مــن الأشــجار،ممنوع قطــف الأزهــار والورود،ليس هناك سوى الذباب.

يعلن المذيع:- فـي جميـع أنحـاء العـالم تنتشـر الـدعايات الصـهيونية المغرضة،تسـيطر الصـهيونية فـي أمريكـا علـى الكونجرس،الإنسـان العربـي فـي نظـر الغـرب مـا زال يسـكن الخيـام،ويجر وراءه أربـع زوجـات،العرب فـي لنـدن ينثـرون ذهـبهم هنـا وهنـاك علـى الملاهـي والحسناوات،نسـبة الأميـة فـي الـوطن العربـي 80%..يجب أن نتغلب علـى التخلـف،أن نواجـه مشـاكلنا وقضـايانا،ونجابه أعـداءنا فـي الـداخل والخـارج،يجـب

علينا أن نعتمد التفكير العلمي،ونبتعد عن الخرافة والوهم والعواطف في حل مشاكلنا
((لماذا يستخدم بعض الناس أحدث الوسائل السحرية في التآلف مع الذباب؟))
- يجب علينا أن نجابه التحديات الحضارية،أن نردم الهوة الواسعة التي تفصل بين مجتمعنا المتخلف،والمجتمعات المتقدمة

((إننا لا نأخذ من الحضارة سوى القشور،ونترك الجوهر))
- يجب أن تتوحد مشاعر العرب،أن يجابهوا العدو

((يا لوحدة مشاعرهم حين صمتوا أمام حصار بيروت!إنهم يتصارعون أي منهم سيستقبل الذباب بشكل لائق أكثر من الآخر))
يتابع المذيع:- سننتصر..سننتصر على العدو بإرادتنا
((بعض الناس ينتصرون أمام ضميرهم،ينهزم الضمير غالبا))
((يجب أن تتوحد القوى رجالا ونساء،يجب أن تشارك المرأة في بناء المجتمع،أن تعي دورها الحضاري والإنساني))
((النساء ناقصات عقل ودين،المرأة شيطان رجيم،أخرجت آدم من الجنة))

أطفئ المذياع،إنه يذكرني بالعالم من حولي،يفتح لي نافذة على ما يجري هنا وهناك،أهرب إلى أحلام اليقظة،أستغرق فيها،أهرب إلى تساؤلاتي الأبدية،أضيع في متاهاتها،أقرأ في إحدى المجلات الطبية:((حين تسيطر أحلام اليقظة على الإنسان ينسى الواقع الذي حوله،ولا يستطيع التأقلم معه،وعندئذ يحتاج إلى علاج نفسي)).

يبدو أن كاتب هذه المقالة لم يتعرض لأي نوع من أنواع الذباب،يظن من يحس أكثر من غيره بمشاكل العالم مريضا نفسيا،ويظن العلاج النفسي يحل مشاكل العالم،حتى الحلم أصبح مرضا نفسيا!هل منعت حتى الأحلام؟!

أغمض عيني،وأحلم في اليقظة،أرى جبلا صخريا عاليا،أرى أناسا يشقون الجبل بمجارفهم وفؤوسهم،يأتون من خلال الممر الذي شقوه،يلبسون اللون الأخضر،تتألق عيونهم بأشعة فوق الخضراء ،آخر اكتشاف علمي للقضاء على الذباب.

أغمض عيني،وأحلم في اليقظة،أرى جبلا صخريا عاليا،أرى أناسا يشقون الجبل بمجارفهم وفؤوسهم،يأتون من خلال الممر الذي شقوه،يلبسون اللون الأخضر،تتألق عيونهم بأشعة فوق الخضراء،آخر اكتشاف علمي للقضاء على الذباب.

أغمض عيني،يمشي مجانين التاريخ في رتل أمامي،يمشي شهداء الحقيقة،أغمض عيني،فأرى فراشة موردة الجناحين تتهادى بين أسراب الذباب،أفتح عيني فأرى فراشة موردة الجناحين تتهادى بين أسراب الذباب،أفتح عيني،إنها فراشة حقيقية!أنظر بحدة!أحدق!إنها فراشة حقيقية!
كم كنت أهوى الركض وراء الفراشات!
لم يخطر لي من قبل أن الفراشات قد توجد حتى في مكامن الذباب،أثبت قدمي في الأرض وأطير،أصير فراشة،أطير قبل أن يفوت الأوان ويجرفني الطين إلى الأسفل،قبل أن يفوت الأوان،ويصرعني الذباب،قبل أن يفوت الأوان،وأتحول إلى ذبابة قذرة.
1983/8/10

الفهرس

1- الحذاء
2- السماعة
3- الزقاق
4- الخزانة
5- الدرج
6- عند النافذة
7- صباح لطيف
8- الفنان
9- قطة أم سوسو البريئة
10- علي بابا و (الأربعين حرامي)
11- الاحتفال
12- المغفل
13- انتقام الجثث
14- المواجهة
15- حدث ذات يوم
16- المبتسم
17- سيرة الصراصير
18- الذباب